

دراسات في

الفلسفة السياسية عند هيجل

تأليف

أ.د. إمام عبد الفتاح إمام
أستاذ الفلسفة - جامعة الكويت





١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ ش سيف الدين المهراني - الفجالة
ت : ٩٠٤٦٩٦

دراسات في
الفلسفة السياسية
عند هيجل

تأليف

أ.د. إمام عبد الفتاح إمام
أستاذ الفلسفة - جامعة الكويت

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ ش سيف الدين المهراني - الفجالة
ت ٩٠٤٦٩٦١

مقدمة

في هذا الكتاب مجموعة من الدراسات التى تدور حول الفلسفة السياسية عند هيجل ، وقد قسمناها قسمين : **الأول** : يعالج الكتابات السياسية المبكرة ، وقد بدأناه : بأول عمل سياسى دفع به هيجل الى النشر ، وهو عبارة عن ترجمة وتعليق لكتاب محام شاب هو جان كارتر الذى نشره فى باريس عام ١٧٩٣ ــ نفس السنة التى وصل فيها هيجل الى مدينة بيرن ليعمل مدرساً خصوصياً فى بيت من بيوت الأشراف هناك هو بيت « آل شتيجر » ــ وكان هيجل قد هاله ما وجد ، فى هذه المدينة من رجعية وظلم وجرائم ! فضلا عن حكم استبدادى تسلطى ! فوجد فى كتاب كارتر فرصة مواتية تشرح هذه الجرائم وتفضحها وهو الشاب المتحمس للعدالة ابن الثلاثة والعشرين ربيعاً المفعم بالأفكار العقلية التى بذرها عصر التنوير !

واذا كان المقال الأول دراسة « لهيجل والرجعية السويسرية » ــ فان المقال الثانى ــ فى كتابنا هذا ــ دراسة للعمل السياسى الثانى الذى كتبه هيجل بعد أن غادر بيرن الى فرانكفورت ، وفى الفترة التى دفع فيها بالعمل السياسى الأول الى المطبعة ، والغريب أن هذا العمل السياسى الثانى لهيجل هو ايضاً كشف للرجعية السياسية لكن فى ألمانيا

---

(١) كان المفروض أن يظهر هذا الكتاب ، على هذا النحو ، منذ سبع سنوات ، لكن ظروفاً خارجة عن ارادتنا أجلت طبعه ، فنشرنا منه ثلاث مقالات فى كتابنا « دراسات هيجلية » وهى : « هيجل والرجعية السياسية فى برن » و « ورقة عمل » و « الحرب ومحكمة التاريخ » ، وقد آثرنا ان نترك المقدمة كما هى لأنها تستعرض كتابات هيجل السياسية التي كتبها الى جانب كتابه الرئيسى « أصول فلسفة الحق ».

هـذه المرة ، وفى مقاطعة فورتمبرج ! التى ولد فيلسوفنا فى عاصمتها شتوتجارت . !

أما الدراسة الثالثة فهى تدور حول مقاله الشهير عن « دستور المانيا » ـ وهو وصف رائع للتمزق التى كانت تعانى منها الأمة الالمانية فى عصره : فالامبراطورية الألمانية تجزأت الى دويلات صغيرة ، بغير قانون موحد ولا دستور واحد ، ولا مجلس نيابى قادر على سن التشريعات المختلفة أو عملة واحدة .. الخ ـ ويصف هيجل حالة المانيا بقدر غير قليل من الحزن والأسى حيث لم « تعد ألمانيا دولة » ـ ولهذا سقطت مترنحة تحت أقدام الغزاة من الفرنسيين ، فعندما طرقوا الباب طرقات خفيفة انفتح على مصراعيه ! ولا أحد يدافع عن ألمانيا سوى بالخطب والكلمات والعبارات الرنانة (وكأنه فى الحقيقة يصف حال الأمة العربية الآن !) ـ فكيف يمكن اعادة توحيد ألمانيا ؟ هنا يبدى هيجل اعجابه بمكيافللى ويتنبأ بقدوم بسمارك ! ولعل هـذا ما دفع أحـد الباحثين الى القول بأن هيجل كان يتمنى فى ذلك الوقت أن يصبح « مكيافللى عصره » ! !

ثم عقبنا على هـذه الدراسات بمجموعة مختارة من النصوص التى ترجمناها عن مقاله « دستور ألمانيا » .

أما القسم الثانى من كتابنا هـذا فهو يدور حول « الكتابات السياسية المتأخرة » أعنى أنه يتناول موضوعات من فكر هيجل السياسى النهائى ، ويبدأ هـذا القسم بموضوع عن « بومة منيرفا » ـ وقد ورد فى عبارته الشاعرية الجميلة فى « فلسفة الحق » عندما قال : » ان بومة منيرفا لا تبدأ فى الطيران الا بعد أن يرخى الليـل سدوله « . ـ وهو يقصد بها الفلسفة بصفة عامة ، والفلسفة السياسية بصفة خاصة ـ فقد كان يعارض ما يراه البعض من أن الفلسفة السياسية تعالج موضوعات مثالية

أعنى لا توجد فى العالم الواقعى ، موضوعات توجد فى عالم المـاوراء ـ عالمـا لا يعلم الا الله اين يوجـد ! ـ ليست الفلسـفة السياسية دراسـة « للمدينة الفاضلة » ولا للمجتمع الطوباوى ، بل هى دراسـة للواقع السياسى الحاضر الذى يعيشه الناس : هنا وردة ، وهنا ينبغى عليك أن ترقص ! هنا المتعة الحقيقية التى تجدها الفلسـفة عندما تدرس الحاضر ، أعنى ما هو موجود أمامها وتقوم باكتشـاف العناصر العقلية الكامنة فيه ! وهكذا هـذه الدراسة حول موضوع الفلسفة السياسية عند هيجل ..

أما الدراسة الثانية فهى « تدور حول علاقة هيجل بالثورة الفرنسية » وقد مرت هـذه العلاقة بمرحلتين متميزتين : **الأولى** : عندما كان طالباً فى معهد توبنجن الدينى واندلعت الثورة عارمة مهددة أوربا بغزو فكرى وسياسى جديد عن « الحرية ، والاخاء ، والمسـاواة » ـ فامتلأ شـباب المعهد حماسـاً لهذه الأفكار ، وأنشأوا نادياً لبث هـذه الأفكار الرائعـة التى حولت أفكار عصر التنوير العقلية الى واقع حى فجسدت حقاً عصر العقل الذى كان ينادى به عظماء المفكرين فى القرن الثامن عشر !

أما المرحلة الثانية التى مرت بها علاقة هيجل بالثورة الفرنسية فهى مرحلة النضـج والتأمل فيما أحدثته الثـورة من خراب ودمار ، فما الذى جعل الفكر العقلى الحى ينقلب على هذا النحو الى طوفان مدمر ؟! السبب أن رجال الثـورة لم يسـمحوا بالتطبيق العملى الجاد للأفكار التى نادوا بها (كعادة الثورات حتى فى مجتمعنا العربى !) ذلك لأن تحقق هـذه الأفكار بالفعل يحد من حريتهم لأن قيام المؤسسات الدستورية ، وسـيادة القانون ، واعطاء كل ذى حقه حقه ، سوف يعنى فى الحال أن تتحول حرية الحكام المطلقة الى حرية مقيدة متناهية محددة ، ولهذا راحت الثورة تدمر ما تقوم هى نفسها ببنائه !

أما الدراسة الثالثة فهى تعرض لتصور هيجل للمجتمع البرجوازى الذى يسميه أيضاً بالمجتمع المدنى وكيف انه يقوم على أساس الفردية الخالصة التى تعمل لتحقيق اشباع حاجاتها هى فحسب ، وتستخدم الآخرين كوسائل لتحقيق غاياتها ، لكنها تكتشف أن الآخرين يستخدمونها لاشباع حاجاتهم هم أيضاً ، وهكذا يتحول اشباع الغاية الجزئية الخاصة الى اشباع لحاجة وغاية كلية ! ولقد اعتمد ماركس كثيراً على تصور هيجل للمجتمع البرجوازى !

أما الدراسة الرابعة والأخيرة فهى تدور حول « الحروب ومحكمة التاريخ » وهى محاولة لعرض رأى هيجل فى الحرب الذى كثيراً ما أسىء فهمه وتفسيره . بل كثيراً ما قيل انه كان يمجد الحرب ، وأن الحروب العالمية التى طحنت البشرية سنوات طويلة ليست الا أثراً من أثار فلسفته المدمرة ! . ولقد ذهبنا الى أن ذلك كله يسىء فهم الفكرة الهيجلية أحياناً بحسن نية ، وأحياناً أخرى يقتطع العبارات من سياقها ليسىء فهمها عامداً !

والواقع أننى أردت بهذا الجهد المتواضع الذى أضيفه اليوم الى المكتبة الهيجلية ، أن أفتح أمام شبابنا مجالات للدراسة ، ولعل الكلمات القليلة التى ذكرتها حول كل موضوع من موضوعات هذه الدراسة ما يغريهم لمواصلة الطريق ، فيتناولونها بالعمل الجاد والتحليل المتعمق ، بحيث نستطيع أن نلقى الضوء قوياً على هذه الفلسفة المستعصية ، ثم نأخذ منها مفاتيح أساسية نحلل بها واقعنا السياسى المتدهور محاولين اصلاحه .

الله نسأل ان يهدينا جميعاً سبيل الرشاد :

امام عبد الفتاح امام

القسم الاول

« الكتابات السياسية المبكرة »

دســـتور المـانيـــا

Fiat Justitia, Pereat Germania

« فلتحيا العدالة ، ولتسقط ألمـانيا ! »

هيجل : « دستور ألمـانيا » ـ ص ١٥١

ـ فوضى سياسية : ـ

اذا اردنا أن نفهم مقال هيجل عن « دستور ألمانيا » فهماً جيداً فان علينا أن نضع فى اعتبارنا باستمرار الوضع السياسى فى ألمانيا فى ذلك الوقت ، الوضع الذى أثر فى هيجل الشاب تأثيراً قوياً فدفعه الى كتابة هذه الدراسة .

واذا كانت مقالته عن « دستور المانيا » تكشف عنصراً دائماً (لعله يقصد العنصر العقلى) من تفكيره السياسى فانها كذلك تعكس تفكيره الحزين فى الامبراطورية الألمانية(١) .

لقد كانت المانيا فى ذلك الوقت تعيش فى فوضى سياسية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة : « فمن تطور المانيا التاريخى يمكن ان نستخلص هذه النتيجة : وهى أن ألمانيا لم تكن لتشكل هيئة سياسية قومية : لقد كانت امبراطورية تتألف من ٣٦٠ دولة ! حتى أن وسط المانيا وغربها كانا عبارة عن « فسيفساء » سياسية تضم دولا صغيرة جداً تتألف الواحدة منها من دوقية ، أو قصر ، أو مدينة ، أو امارة كنسية . واذا كانت بروسيا تضم ٢ر٥ مليون نسمة من السكان وهى أكبر دوقية فمن الممكن تصور حال الدول الأخرى »(٢) .

ولهذا السبب كان الحديث باستمرار عن المانيا المجزأة الممزقة

---

(1) G.R.G Mure : The Philosophy of Hegel P. 51 (Oxford University Press 1965).

(٢) الدكتور نور الدين حاطوم « حركة القومية الألمانية » ص ٧ ـ ٨ معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية ـ القاهرة ١٩٧٠ .

الى وحدات سياسية ضعيفة ، وهــذا هو السبب فى انهيارها أمام الجيوش الفرنســية الثورية ، التى طرقت الباب فانفتح على مصراعيه ! ٠

وهــذا التمزق للأمة الألمــانية فى دويلات صــغيرة كان يستتبعه فى الحال تمزق فى التكوين الســياسى لهذه الامبراطورية فليس ثمة قانون دســتورى واحد ، ولا مجلس نيابى قادر على سن التشريعات المختلفة ، أو العملة الواحدة أو فرض الضرائب ، أو سن قوانين للدفاع ٠٠ الخ ـ وانما « كانت هــذه الـــ ٣٦٠ دولة موزعة على عشر دوائر ، ولكل منها عليهــا تبعة الدفاع المشــترك ، وتنفيذ قوانين الامبراطورية ٠ أما القضايا دياطها الخاص ٠٠٠٠ Diat (أو مجلسها النيابى الخاص) ، وتقــع العــامة فتعرض على دياط الامبراطورية ولم يكن هــذا الدياط ينعقد الا مؤقتاً وبدعوة من الامبراطور ٠٠ »(٣) ٠

ومن هنا نســتطيع أن نقول انه لم تكن هنــاك دولة ألمــانية ، أو فكرة سياسية ألمــانية ، لقد كانت ألمــانيا مقسمة الى عدة أقســام نكل منها نعرتها الاقليمية الخاصــة ٠ وكل نقاش أو جدال فى ســبيل التغيير أو الاصلاح كان يدعو الى الخوف من الوحدة ! لقد كانت النعرة الانفصالية ســائدة فى كل دولة من دول ألمــانيا ٠ ولم يكن بين هــذه الدول وحدة نقدية (عملة) ، أو قوانين ، أو مقاييس ، بل ولا أية وحدة معنوية(٤) ٠

واللون الوحيد من الوحدة الذى بدأ يظهر فى آخر القرن الثامن عشر هو تشــكيل أمة فكرية ألمــانية ٠ وهــذا هو الحادث الجديد حقــاً ٠ ولقد كان القرن الســابع عشر ، بما أعقبه من أضرام حرب الثلاثين عاماً ،

---

(٣) نفس المرجع الســابق ص ٩ ٠

(٤) نفس المرجع الســابق ٠

عصر احياء فكرى فى المـانيا ، لم يرتفع فيه سوى اسـم ليبنتز الكبير ، ثم تلا ذلك عصر تهيئة واعداد ونرى فيه عملين متناقضين ·

الأول : عمل العقلية من مدرسة ليبنتز ·

الثانى : الحركة الدينية التى قام بها الاتقياء البروتستانت ·

ومنـذ عام ١٧٤٠ يمكن الحديث عن وجود المـانيا الأدبية ، وتتفق هـذه الحركة مع نمو الطبقة البرجوازية وهى الطبقة الوسطى التى تشكلت نتيجة للرخاء الاقتصادى · وهـذا النهوض الفكرى عند البرجوازية يتضح فى نشر المجلات الأدبية ، واصلاح الجامعات ·· الخ وبنهوض هـذه البرجوازية واصلاح الجامعات بدأ بتشكيل فى المـانيا جمهور مثقف ·

يبدأ هيجل مقاله بتلك العبارة الغريبة التى تشـبه اعلان الوفاة : « المـانيا لم تعد دولة » ! لقد زالت الحياة عن تلك البنية السـياسية فماتت ! تلك هى الحقيقة التى ينبغى علينا التسـليم بها بغير نقاش أو جدال : وهل هناك حقيقة أقوى من الموت ؟ أنعى لكم يا أصـدقائى نهاية الامبراطورية الألمـانية ! « فلا شك أن التفكك الكامل للامبراطورية الرومانية المقدسـة للأمة الألمـانية القـديمة ، فى مواجهتهـا للجمهورية الفرنسـية كان الأسـاس الأول لدراسـة هيجـل »(٥) يقول سـباين Sabine ان هيجل يبدأ مقاله بالتأكيد اللافت للأنظار : « لم تعد المـانيا دولة » · وأيد هيجل هـذا القول بتحليل قدير للغاية لانهيار الامبراطورية بعد صلح وستفاليا الذى تم سـنة ١٦٤٨ فى نهاية حرب الثلاثين سـنة »(٦) وربما كانت النغمة الحزينة التى يبدأ بها مقاله ترجع

---

(5) S. Avineri : Hegel's Theory of The Modern State P 35 Cambridge University Press 1972.

(٦) تطور الفكر السياسى ـ المجلد الرابع ص ٨٤٥ ·

الى وجوده فى مدينة فرانكفورت أثناء كتابة مسوداتها الأولى على الأقل .
تلك المدينة التى كانت مقراً لانعقاد الانتخابات الامبراطورية وتتويج الأباطرة فى كنيسة « سان بارثمليو » الكاثوليكية العتيقة ها هنا يتم تتويج الامبراطور أو ها هنا كان يتقدم صاحب الجلالة وسط موكب مهيب من مواكب العصور الوسطى يحيط به الفرسان ومن ورائه كبار رجال الدولة الى مأدبة فخمة تقام فى قصر البلدية ، وليلتها لم تكن تغمض للمدينة عين ! .

أما الآن فقد خابت حتى آمال المواطنين من الألمان فى أن تنهض ألمانيا من سباتها لتأخذ مكانها بين الأمم . لقد كتب هيجل فى المسودة الأولى لهذه الدراسة يقول :

« الصفحات القادمة هى صوت قلب يكره أن يودع أمله فى أن يرى الدولة الألمانية تنهض من حالة اللامعنى المطبق التى تخيم عليها — وهو قبل أن يهجر آماله تماماً — فانه يرغب مرة أخرى فى أن يسترجع تلك الآمال التى خابت بالتدريج « وأن يغذى مرة أخرى ، بتصوير عقلى . ارادتها المؤمنة بتحقيق تلك الآمال .. »(٧) .

كان ذلك فى المسودة الأولى حيث كان يحدوه الأمل ويرفض قلبه توديعه ، لكنه الآن فى النسخة النهائية حذف هذه الفقرة ، كما حذف كل اشارة الى الآمال الوطنية ، وراح يؤكد أن الدرس الذى نتعلمه من مؤتمر راشتاد ...... **Congress of Rastatt** (١٧٩٩) هو أن « ألمانيا لم تعد دولة » . وهى العبارات التى افتتح بها مقاله فى المسودة النهائية وهى العبارة التى كانت فى الأصل شرحاً على هامش فى المسودة الأولى — وهى تدل فى الأعم الأغلب على أن هيجل ، مثل هولدرلين ،

---

(7) H- S- Harris : Hegel's Development, P 437 — 438. Oxford 1972.

قد تخلى على نحو تام عن « آماله »(٨) . وعلى الرغم من ان الناس لا تزال تتحدث عن الامبراطورية كما لو كانت تعنى شيئاً حقاً ، والفقهاء والمشرعون يكتبون المجلدات عن القانون الامبراطورى العام ، ويشرحون ما يسمى بالقانون الدستورى الذى لم يعد يتفق مع الفكرة ولهذا نراهم يصفون ما هو موجود من الناحية التجريبية فحسب »(٩) . لكن هيجل يؤكد أن ألمانيا لم تعد دولة - ولا ينبغى أن نقول عنها الا أنها تعيش فى فوضى سياسية ، أو ان شئنا الدقة يمكن أن ينطبق عليها ما قاله « فولتير .... Voltarie عن الامبراطور شارل الرابع ملك فرنسا (١٣٤٧ - ١٢٧٨) من أنه « قد شرع الفوضى وسماها دستوراً » فبالمثل نستطيع أن نؤكد أن ألمانيا تعيش فى فوضى دستورية أو فوضى سياسية فهى حشد من الوحدات السياسية المستقلة ، وعلاقاتها السياسية تحمل كل الدلائل على أنها تعيش فى حالة طبيعية أو تشكل دولة طبيعية أكثر منها دولة مدنية(١٠) . فقد ظلت ألمانيا لعدة قرون ، ولا تزال ؛ مجموعة نصف اقطاعية من الوحدات السياسية : الامارات ، والدوقيات ، والأبرشيات والمدن الحرة وشتات من الجماعات الأخرى ، ذلك الوضع خلافاً لما يقوله المنظرون السياسيون الذين يشوهون الوقائع لكى تتلاءم مع تصوراتهم الأولية القبلية .... a Priori لا يمكن أن ينظر اليها على أنها دولة حقيقية(١١) . أنها اسم له دلالات على عظمة ماضية ، ولكنها كنظام لا تعتبر متطابقة تماماً مع حقائق السياسة الأوربية(١٢) .. فاذا

---

(8) H- S- Harris : p. 438 .

(9) Hegel : German Constitutier p . 143

(10) Z. A Pelczynski : An Introductory Essay p. 14

(11) G. R. G. Mure : The Philos . of Hegel p- 51 .

(١٢) جورج سباين تطور الفكر السياسى المجلد الرابع ص ٨٤٥ .

كنا سنقول أن ألمانيا لا تزال دولة فاننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً سوى أن نكرر ما يقوله عالم سياسى أجنبى (هو فولتير) فنسمى الانحلال الحالى للدولة بأنه فوضى لولا أن الأجزاء التى تتألف منها قد جعلت من نفسها دولا (١٣) ، ويستطرد هيجل ويقول ان على الرغم من ان مظهر الوحدة بين هذه الوحدات السياسية الألمانية : المقاطعات والأقاليم الألمانية المتعددة ـ مازال قائماً ، لكنه فى الواقع ليس رابطة موجودة الآن وانما هو ذكرى لرابطة ماضية ! واذا كنا نعرف من سقوط الثمرة أنها تنتمى الى الشجرة التى استقرت تحتها ، فاننا ينبغى أن نكون على بينة من أنه لا شىء يمكن أن ينقذها من الفساد والتعفن : لا رقادها تحت الشجرة ، ولا ظل الشجرة الذى يسقط عليها (١٤) .

والمحك الأساسى الذى لجأ اليه هيجل ليؤكد على أساسه أن ألمانيا لم تعد دولة هو الضربات التى وجهها جيش الثورة الفرنسية للدولة الألمانية الكبرى أو نظام الرايخ وتاريخى القديم ، ولم ينظر هيجل الى هذه الحرب على أنها نزاع بين أمتين أى حركتين قوميتين ولكنه نظر اليها على أنها صدام بين نوعين من الدول ونظامين من النظم السياسية : ومن هنا فان انتصار الجيوش الفرنسية كان دليلا على قوة الدولة الحديثة وتماسكها على نحو ما صهرتها القوى الثورية فى فرنسا . أما النظام الألمانى للامبراطورية القديمة فغدا نظاماً متخلفاً من العصور الوسطى عاجزاً تمام العجز عن الوقوف أمام هذه القوى الاجتماعية (١٥) .

فى هذه الحرب التى خاضتها ألمانيا العتيقة المهلهلة ضد الجمهورية الفرنسية الفتية الحديثة تحققت ألمانيا بنفسها وبخبرتها الذاتية أنها

---

(13) Hegel : Op . cit . p . 143 .

(14) Ibid .

(15) S. Avineri : Op. cit P 35

لم تعد دولة . وعلى الرغم من أننا سوف نعود الى هــذا الموضوع بالتفصيل فاننا نريد الآن ان نؤكد ، مع ميور .... G . R. Mure أنه رغم الدور الضروري والمــأساوي الذي يعتقد هيجل ان الحرب تلعبه في مصير الأمم ، ورغم الســلطة الطاغية التي تدعيها الدولة ، عنده ، لنفسها حتى تحافظ على بقائها ـ فانه لم يطلب قط ، رغم ما يزعمه كثير من نقاده ، بالتضحية بفردية المواطن على مذبح الدولة ! صحيح أن الدولة عنده كما هي عند ارســطو « تسبق في تسلسل وجودها » وجود الأفراد لكن ذلك ـ وهــذا ما أكده مراراً بغير ملل كلما نضج فكره ـ يرجع الى أنهم يجدون طبيعتهم الحقة ، والتطور الحر لشــخصيتهم في الدولة(١٦) . ويعتقد هيجل أن قوة الدولة السياسية الحقة لا تظهر في حالة الســلم وانما تتجلى واضحة في حالة الحرب يقول :

« ان صحة الدولة ، بصفة عامة ، لا تتكشف بقوة في هدوء السلم بقدر ما تتكشف في لهيب الحرب ؛ لأن السلم هو حالة الاستمتاع والنشاط في عزلة لا سيما اذا كانت الحكومة أبوية منتصرة عاقلة لا تطلب من رعاياها سوى مطالب عادية فحسب . أما في حالة الحرب فان قوة الترابط التي تجمع أفراد المجتمع في كل واحد تصبح واضحة »(١٧) . وتلك هي العبارة التي ذكرها هيجل في « دستور المــانيا » وأسيىء فهمها مراراً حتى قيل أن فيلسوفنا يمجد الحرب اســتناداً اليها ! مع أن هــذا القول لا تتضمنه هــذه العبارة على الاطلاق ، اذ لم يقل هيجل : « أن الحرب هي صــحة الدولة » وانما قال : « انه في حالة الحرب تمتحن هــذه الصحة » والفرق واســع بين القولين فهو يريد أن يقول انه في حالة المرض

---

(16) G. R. G. Mure : The philoso . of Hegel p . 52.

(17) Hegel : German Constitution P. 144 .

تمتحن صحة الجسم ، فهل ذلك يعنى أننا نمجد المرض وندعو اليه .. ؟ ! ـ وعلى أية حال فسوف نعود الى هـذا الموضوع فى مقال مستقل ، وما يهمنا منه الآن أنه يستدل على صـدق اعتقاده بأن ألمـانيا لم تعد دولة من حروبها مع فرنسـا يقول :

« لقد جربت ألمـانيا بنفسها أثناء حربهـا مع الجمهورية الفرنسـية انها لم تعد دولة وأصبحت واعية لوضعها السـياسى سواء فى حالة الحرب أم فى حالة السلم . وهناك نتيجتان ملموستان نخرج بهما من الحرب مع فرنسـا هما :

(أ) ضياع أجزاء من أجمل الأراضى الألمـانية(١٨) ، مع فقدان بضعة ملايين من السـكان .

(ب) عبء الديون (التى كانت قاسـية فى الجنوب أكثر منهـا فى الشـمال) التى كانت امتداداً لبؤس الحرب فى وقت السلم .. » ! ثم يضيف هيجل :

« ونتيجة أخرى هى أنه الى جانب أولئك الذين وقعوا فى قبضة المحتلين ، والقوانين والعادات الأجنبية ، ستفقد ولايات كثيرة أعظم خيراتها ، أعنى استقلالها »(١٩) . ومن هنا ، من الانحلال والتفكك الذى برهنت عليه الحرب ، ينشأ كل ما لحق بألمـانيا من محن ، وبؤس وفقر ، وضعف فى الحرب ، وانعدام لحرية أبنائها(٢٠) .

---

(١٨) لعله يشـير الى حقيقة تاريخيـة وهى أن الفرنسـيين ضموا اليهم الضـفة اليسرى من نهـر الراين فى معـاهدة لونفيل **Luneville** عام ١٨٠٢ .

(19) G. R. G. Mure : op. cit. p. 51 .

(20) Ibid .

ويعتقد هيجل اننا فى حالة السلم نجد الفرصة مواتية لكى نتدبر بروية وامعان ما حدث لنا ولنسأل انفسنا : ما هى الأسـباب الداخلية الكامنة للنتائج التى وصلنا اليها ما هى الروح الكامنة داخل هـذه الأحداث ؟ وبأى معنى يمكن أن نعتبر هذه النتائج المظاهر الخارجية لتلك الروح ..

وهنا كما هى الحال فى كل مكان آخر يبحث هيجل عن « الضرورة »، لأن هدفه هو التفسـير العقلى للواقع الذى نعيش فيه ، هـذا « الحاضر بأسمى معانى الحضـور » الذى هو الموضوع الأول للفلسـفة كيف يمكن أن نفسره تفسيراً عقلياً ؟ ان التفسير العقلى يعنى ابراز الوقائع المفككة فى صورة عقلية مترابطة ترابطاً ضرورياً . ومن ثم فان تدبر ما حدث وامعان النظر فيه انما يناسب الهدف ، فيما يرى هيجل ، الذى يرمى اليه كل شـخص لا يذعن للوضع القائم ، لكنه يريد أن يتعرف على الأحداث لكى يصل الى ضرورتها . وهذا الشـخص ، بهذه المعرفة ، يفترق عن أولئك الذين لا يجدون سوى « الصدفة » و « العشوائية » فيما حدث . ان حمقهم ، فيما يرى هيجل ، يقنعهم بأنه كان من المستطاع ترتيب الأحداث على نحـو أكثر حكمة .. لكن لمـاذا يرفض هيجل « الصدفة » « والعشوائية » فى فهم الواقع وتفسـير الأحداث .. ؟ السبب هو انه يريد التفسـير الفلسـفى أو التفسـير العقلى وهو لا يكون عقليا اذا ما فسر الوقائع بأنها « عرضية » أو عفوية ، بل ذلك ليس تفسـيرا على الاطلاق !

انما التفسـير الحقيقى هو التفسـير الذى يكشف عن ترابط الأحداث وبين ضرورتها . وهـذا هو الهدف الذى يسعى اليه هيجل فى هـذه الدراسة — يقول صراحة :

« قد لا يكون للأفكار التى تحتوى عليهـا هـذه الدراسة أى هدف آخر ، أو تأثير آخر عنـدما تنشر ، سوى العمل على فهم ما هو موجود ،

ومن ثم تكوين نظرة أكثر هدوءا ، وكذلك قبول معقول للمسائل على نحو ما هى عليه سواء فى مناقشاتنا أو احتكاكنا اليومى بالأمور . ذلك لأن وضع الأمور على نحو ما هى عليه ليس هو السبب الذى جعلنا ساخطين غير راضين ، وانما واقعة أن هذا الوضع ليس هو ما ينبغى أن يكون . لكن لو عرفنا أن الوضع على ما هو عليه يجب أن يكون على هذا النحو ، أعنى انه لم يكن كذلك بسبب الصدفة أو العشوائية . فاننا عندئذ نعترف بأن ما هو قائم الآن هو ما ينبغى أن يكون »(٢١) .

معنى ذلك أن هناك نظرتين للوقائع : نظرة سطحية هى « نظرة الفهم » تراها مفككة ، متناثرة لا تجمعها رابطة قوية لأنها تظهر بفعل « الصدفة » أو « الهوى » أو « العشوائية » ثم هناك نظرة فلسفية هى « نظرة العقل » ، وهى التى يدعونا هيجل اليها ، وهى التى ترى خلف الأحداث مبرراً قويا ، وسبباً ضرورياً هو الذى جعلها على هذا النحو .

ولقد شن هيجل حملة بالغة العنف فى تصديره لفلسفة الحق ـ بعد ذلك ، على النظرة الأولى السطحية الغريبة التى ترى أن الأحداث السياسية والتاريخية التى تقع فى المجتمع البشرى ، انما تحدث بمحض الصدفة وترفض وجود الضرورة فى مجال النشاط البشرى ، فهو عندها يخلو من « العقل » واحداثه بعيدة عن المعقولية ، وتفسيره لا يكون تفسيراً عقليا ، فى حين أن أحداث الطبيعة يمكن أن تكون كذلك ؛ يقول :

« ان الناس يسلمون ، اذا ما كان الأمر يتعلق بالطبيعة ، أنه ينبغى على الفلسفة أن تدخل الطبيعة فى نطاق اهتمامها . وان تعرفها على نحو ما هى عليه . وانه اذا كان حجر الفلاسفة مختبئا فى مكان ما ، داخل الطبيعة ذاتها ، فان الطبيعة على أية حال تشمل فى جوفها على علتها

---

(21) Hegel : German Constitution p 145

العاقلة . وما يجب على المعرفة أن تبحث عنه وأن تدرسه على شكل أفكار شامنة ، هو هذه العلة العاقلة ...... Reason الكامنة بداخل الطبيعة ، لا صورها وأحداثها العارضة التى تظهر للملاحظ السطحى ، بل الانسجام الأزلى والتناسق الأبدى فى هـذه الطبيعة ، وهو قانونها وماهيتها الكامنة فيها ، أما العالم الأخلاقى والدولة (أعنى العقل على نحو ما يتحقق بالفعل على صعيد الوعى الذاتى) فلا يظفران بطائل من القول بأن السيادة والقدرة على هـذا المستوى تكونان للعقل الذى يوطد نفسه ويجد أنه فى بيته بين هـذه المؤسسات ، فتراهم يفترضون أن العالم الروحى هو ، على العكس ، يقع تحت رحمة الصدفة والهوى ... »(٢٢).

ولقد كانت النظرة الأولى هى السائدة فى ألمانيا مما سبب لهيجل انزعاجاً شديداً ، لأنها أدت بالالمان الى لون من ألوان « الاغتراب » انفصلوا فيه عن واقعهم ، وغابوا عنه ففشلوا فى فهمه وتحليله ودراسته والكشف عن الأسباب العميقة التى أدت اليه حتى يتخلصوا منها ، وأصبحوا يعيشون فى حالة غريبة من الانفصام الكامل بين « الفكر » و « الواقع » بين « النظرية » ، و « التطبيق » ؛ لأنهم عاشوا وسط تصورات اخترعوها عن الحق ، والقانون والحرية ، والدستور ... الخ(٢٣) . لكن الفكرة الأم المسيطرة عليهم أو التصور الذى يشمل جميع التصورات السابقة هى القول بأن ألمانيا بما هى كذلك لا تزال دولة لأنها كانت ذات يوم

---

(22) Hegel : The Philosophy of Right ; p 4

وقارن ترجمتنا العربية « لأصول فلسفة الحق » ص ٦٨ ــ ٦٩ من الجزء الأول ، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٨١ ، وطبعة دار التنوير ص ٧٦ ــ ٧٧

(23) Hegel : German Constitution p 146

دولة ، ولأن الاشكال التى تستمد منها الحياة لا تزال باقية على حالها الى اليوم ! وهذا لا يعبر الا عن وهم كبير لأن « ألمانيا لم تعد دولة ٠٠ » !

على هذا النحو يحلل هيجل الأوضاع السياسية القائمة فى البلاد محاولا أن يبين المنهج الصحيح لفهم هذه الأوضاع وهو المنهج العقلى الذى يسعى الى الكشف عن الضرورة فى قلب ما يبدو حدثاً عرضياً أمام نظرة الفهم العجلى ويرى هيجل أن هذه النظرة الفلسفية الى الأحداث ليست سهلة فالحق أنه من العسير ، عادة ، على أواسط الناس أن يرتفعوا الى تكوين عادة عقلية هى التعرف على الضرورة والتفكير فيها ٠ فتراهم يحشرون حشراً مجموعة من الأفكار والتصورات بين الأحداث وتفسيرها ، ثم يجأرون بالشكوى لأن ما حدث لم يتفق مع تصوراتهم ! والأعجب أنهم يلتمسون الأعذار لتصوراتهم وأفكارهم بحجة غريبة واهية هى أنه فى حين أن الضرورة تسودها فان ما يسيطر على الأحداث هى الصدفة ! انهم فى الواقع يفسرون الأشياء على أنها مجرد أحداث فردية معزولة ، ولا ينظرون اليها على أنها نسق ٠٠ System من الأحداث تحكمه روح واحدة ! وسواء أكانوا حقاً يعانون مما يحدث أو يشعرون بالهوة بين تصوراتهم وبين ما يقع من حوادث ، فانهم فى النهاية يجدون فى التمسك بتصوراتهم وتأكيدها ما يبرر لهم الشكوى ببراءة مما قد حدث !

ولقد رمت العصور الحديثة الألمان ، بين ما رمتهم به — بهذه الرذيلة فتراهم يتأرجحون فى تناقض مستمر بين ما يطلبون (وهو ما تمثله أفكارهم وتصوراتهم) ، وبين ما يحدث عكس ما يطلبون (أى الواقع الذى يعيشون فيه) ، وهكذا حدث انفصام بين أفكارهم الكاذبة غير الأمينة التى ينسبون فيها الضرورة الى تصوراتهم عن القانون والواجب ، وبين الواقع الذى يعيشون فيه : فلا شىء يحدث وفقاً للضرورة التى يتحدثون عنها فى تصوراتهم ، ولهذا أصبحوا يألفون التناقض المستمر

بين الكلمات والواقع ! وأحياناً أخرى يلجأون الى محاولة غريبة هى لوى تفسـير هذه الأحداث حتى تتناسب مع تصورات بعينها(٢٤) ٠

وهكذا ذهب هيجل الى أن الرذيلة السياسية الكبرى للألمـان هى رفضهم مواجهة الواقع ، والتسليم بالحقائق وتقييمهم الصور بدون الجوهر ، وادعائهم لأنفسـهم ولغيرهم أنهم أبطال المـان وطنيون ٠ وكان أحـد أهداف هيجل من كتابته لمقالة « دستور المـانيا » هو أن يعرض هذا النفاق ، وأن يجعل مواطنيه يواجهون الحقيقة الواقعة(٢٥) ٠

لو أننا تسـاءلنا كيف شـخص هيجل أسباب انهيار الامبراطورية الألمـانية لاستطعنا أن نقول مع جورج سباين :

لقد وجد هيجل سبب ضعف الامبراطورية بدقة تماماً ، فى المصالح الخاصـة والنزعة الاقليمية اللتين اعتبرهما عيباً قومياً فى الخلق الألمـانى ٠ أن الألمـان أمة من الناحية الثقافية ولكنهم لم يتعلموا أبداً اخضاع الجزء للكل وهو ما يعتبر ضرورياً لأية حكومة قومية ، فليس للامبراطورية شىء من السـلطة سوى ما تمنحه الأجزاء لها ، وليس للدستور القائم من غرض فى الواقع الا الابقاء على ضعف الدولة(٢٦) ٠

والمدن الحرة ، والأمراء المسـتقلون والطبقات الاجتماعية والنقابات المهنية والطوائف المهنية ، هـذه كلها تسـير على هواها ، مستحوذة على حقوق الدولة ومسـببة الشلل لأعمالها ـ بمظهر جذاب من حق قانونى

(24) Hegel : German : P 145

(25) Z· A· pelczynki . An Introductory Essay p 14

(٢٦) جورج هـ ٠ سباين : تطور الفكر السياسى ، الكتاب الرابع ص ٨٤٦ ترجمـة على ابراهيم السـيد ـ دار المعـارف بمصر ابريل عام ١٩٧١ ٠

مستمد من القانون الاقطاعى العتيق الذى يسوس الامبراطورية . فشعار ألمانيا ، كما قال هيجل فى تهكم مرير ، هو : « فلتكن العدالة ولتسقط ألمانيا » ! ذلك أن هناك خلطا كاملا بين القانون الخاص والدستورى ، وأن الامتيازات التشريعية والقضائية والكنسية والعسكرية تباع وتشترى مثل الملكية الخاصة(٢٧) .

انتهى هيجل من تشخيص الوضع الراهن فى المانيا الى وصفه بأنه « فوضى سياسية » ، وأن « ألمانيا لم تعد دولة » ، لكن كيف يمكن علاج هذا الوضع السىء ؟ ! كيف يمكن لألمانيا أن تستعيد أمجادها الماضية فتتحول الى دولة واحدة قوية ذات سيادة ؟ !

يبدأ هيجل ، قبل وصف العلاج ، فى تحديد « مفهوم الدولة » . ما المقصود بالدولة ؟(٢٨) أهى مجرد تجمع من الناس ؟ أيمكن لحشد من الأفراد أن يطلق على نفسه اسم « الدولة » ؟ ويجيب « بالنفى » . « فالحشد » من الأفراد أو « الجمع من الناس » يمثل الحالة الطبيعية للبشر أكثر مما يعبر عن قيام الدولة المدنية ، وهو يعتقد أن رذيلة الألمان السياسية الكبرى هى رفضهم أن يواجهوا الواقع ، أن يدرسوه كما هو ، وأن يحللوا ما فيه من عناصر صالحة وعناصر سيئة بحيث يعملون على تدعيم الأولى وازالة الثانية ، انهم يرفضون التسليم بالحقائق ويقومون بتقييم الصورة بدون الجوهر : من ذلك مثلا انهم يصفهون أنفسهم بأنهم أبطال وطنيون ! اى نفاق يمكن أن يعبر عنه هذا الوصف ! لقد كان

---

(٢٧) قارن الكتابات السياسية ص ١٤٩ .

(٢٨) وهو مفهوم يرى أفنيرى أنه لا يختلف كثيراً عن المفهوم الذى عرضه فيما بعد فى كتابه « أصول فلسفة الحق » راجع كتابه السالف الذكر .

من أهداف هيجل الأساسية وهو يكتب دراسته عن « دستور المانيا » أن يعرض لهذا النفاق ، وأن يجعل مواطنيه يواجهون الحقيقة الواقعية بالفعل ·

وهو يحدد الطبيعة الجوهرية للدولة ، والعناصر الأساسية التى تتألف منها بقوله : ان الأساس الأول فى قيام الدولة هو اتحاد الأفراد جميعاً للدفاع المشترك عن ملكيتها كلها ·. أعنى أن يتضامن جميع المواطنين فى الدفاع عما تملكه الدولة ككل ، وهذا التضامن هو بطبيعته مقياس جيد لمدى تماسك الدولة ومبلغ تخلى الفرد عن الجانب الذاتى والمصالح الشخصية الخاصة ليدخل مع المواطنين فى كل واحد يشد بعضه بعضاً · وسوف يعبر هيجل عن هذا التضامن ملخصاً علاقة الفرد بالدولة ، بعد ذلك بوضوح فى كتابه « أصول فلسفة الحق » حيث يقول : « ان المصير الذى تصبح بواسطته حقوق الأفراد واهتماماتهم مرحلة زائلة هو فى الوقت نفسه اللحظة الايجابية التى تقرر فرديتهم المطلقة لا الفردية العارضة العابرة · ومن ثم فان هذه العلاقة والاعتراف بها هو الواجب الجوهرى للفرد ، فواجبه تأكيد هذه الفردية الجوهرية أعنى تأكيد استقلال الدولة وسيادتها بتقبل المخاطرة والتضحية بالملكية والحياة ، وكذلك التضحية بالرأى ، وبكل شىء آخر يمت بطبيعته الى مجرى الحياة »(٢٩) · والنقطة الهامة هنا هى أن هذا الاتحاد أو التضامن لا يستهدف الدفاع عن شىء جزئى ، فلا يقوم كل فرد بالدفاع عن ماله أو عرضه أو ممتلكاته الشخصية ، بل انه يستهدف الدفاع عن الكل ، كما أن الدولة ، ممثلة فى هذا الاتحاد ، تهب للدفاع عن نفسها دون أن تضع فى ذهنها احتمالات النجاح أو الفشل ، انها تقاتل لأن ذلك مسألة ضرورية لا مفر منها لتثبيت كيانها كدولة : تقاتل بكل ما يتاح لها من أسلحة : وليكن بعد ذلك ما يكون ! فهل يمكن لنا أن نجد مثل هذا

(29) Hegel : The Philosophy of Right. p 209

التضامن فى المـانيا ؟ ! « لن تجد أحداً قط ينكر أن ألمـانيا متحدة للدفاع عن نفسـها بواسطة القوانين والكلمات » . بهذا التهكم المرير يصف هيجل واقع ألمـانيا فى بداية القرن التاسع عشر وكأنه يصف حال الأمة العربية فى القرن العشرين ! فعلى الرغم مما تعانيه أمتنا العربية من تمزق ، فوضى سياسية ، وبعضها « يقنن » هـذه الفوضى ويشرعها ويضعها فى دسـاتير ! ـ أقول رغم هـذا التخبط فانك لن تجد أحـداً ينكر أن الأمة العربية « أمة واحدة » على اسـتعداد لسحق العدو ، فهى مسلحة بالكلمات ! بل ان البلاغة والفصاحة العربية تظهر الآن بشكل أروع مما كانت عليه فى ألمـانيا !

ويرى هيجل أن هناك قوتين أساسيتين لازمتان للدفاع عن الدولة وهما : وجود قوة عسكرية موحدة ومسلحة تسلحياً جيداً بقدر المستطاع ، ثم وجود قوة مالية واحدة ـ باختصار لقيام الدولة لابد أن يكون الجيش واحداً وميزانية الدولة واحدة أيضاً ، حتى اذا ما كانت هناك بعض الدويلات المسـتقلة داخل الدولة . وهـذا ما يعنيه أحيانا بقوله انه لابد أن تكون هناك « سـلطة عامة مشـتركة » تتمثل فى القوة العسـكرية والميزانية ، ثم لا يهم بعد ذلك السـمات والخصائص الجزئية الأخرى للاتحاد : مثل القوانين الجزئية فى كل ولاية ، أو التشريعات الخاصـة فى كل دولة جزئية ، ومثل قيام السـلطة فى يد شخص واحد أو عدة أشـخاص ، وكذلك لا أهميـة لانتظام الحقوق المدنية أو عدم انتظامها بين الأفراد الذين يخضعون للسـلطة العامة ، فى قيام الدولة ، أو فى تحـول الحشـد الى دولة (وكأن هيجـل يتنبأ بما هو قائم الآن فى الولايات المتحـدة الأمريكية : من قيام كل ولاية بوضع تشريعات جزئية خاصـة بها ، وتحـديد حقوق مدنية للأفراد تختلف عما هو قائم فى الولايات الأخرى حتى بالنسـبة للزواج ، والطلاق ... الخ . لكن الأساس فى قيام الدولة يظل مع ذلك قائماً وأعنى به وجود جيش واحد ثم

ميزانية واحدة لجميع الولايات) . وكذلك ليس أساسياً فى قيام الدولة أن يكون هناك عدد معين من الطبقات الجزئية الخاصة أو أفراد المواطنين الذين يشتركون فى صنع القانون ، أو طبيعة المحاكم ، أو ما اذا كان منصب القاضى يتم بالتعيين أو بالوراثة .. فذلك كله يقع خارج مفهوم الدولة على حد تعبيره ! « فوجود الدولة لا يعنى ضمناً المساواة فى الحقوق المدنية لجميع المواطنين ، أو تجانساً فى القانون فى جميع أرجاء أقاليم الدولة ، فقد توجد طبقات ذات امتيازات خاصة واختلافات واسعة فى العرف والثقافة واللغة والدين .. » وهكذا يخرج هيجل اللغة ، على سبيل المثال ، من العوامل الأساسية فى تكوين الدولة ، ويضرب أمثلة لدولة تكثر فيها اللغات المختلفة ولا توجد بينها لغة واحدة ، كذلك العادات والتقاليد والتربية لا تمثل سوى « رابطة فضفاضة » بين أعضاء الدولة . حتى الدين الذى يعبر فيه الانسان عن أعمق أعماق ذاته ، والذى يمثل هوية واحدة ، لم يعد يمثل ضرورة فى تكوين الدولة « فهو شىء تستطيع الدولة الحديثة أن تستغنى عنه » ! ، فالوحدة الدينية أو الدين الواحد فى شعب من الشعوب لم يمنع قيام الحروب حتى بين دول تؤمن بدين واحد وتعتنق المبادىء الدينية ذاتها(٣٠) . والعكس ، فان « عدم التماثل الدينى فى يومنا الراهن » ـ أعنى نقص الهوية الدينية بين الدول أو ايمانها بديانات مختلفة ، لم يمزقها أو يمنع قيام الدولة القومية المتماسكة .

* *

---

(٣٠) كما يحدث الآن فى الحرب العراقية الايرانية التى توشك عدة سنوات بحيث أصبحت أطول من الحرب العالمية !

كيف كان هيجل يتصور اعادة توحيد ألمانيا ؟ لا شك أنه كان فى هذه الفترة المبكرة من حياته يؤمن بالتوحيد عن طريق القوة ، وهناك صفحات طويلة تكاد تكون نبوءة بظهور بسمارك .... Bismarck وسياسة الحديد والدم .... Blut und Eisen (٣١) . وفضلا عن ذلك فهناك اعجاب لا يخفى بمكيافللى وامتداح لكتابه « الأمير » — والحق أن اعجاب هيجل بميكافللى بدأ فى ذلك الوقت (حوالى ١٨٠٢) وان كان قد استمر طويلا ، فقد قرأ هيجل كتاب « الأمير » لكميافللى (٣٢) ومن هنا كان اعجاب هيجل الشديد بمكيافللى واهتمامه به ، وهو اعجاب لم يتغير قط طوال حياته ، فما قاله فى كتاباته السياسية المبكرة عاد يكرره فى « محاضراته حول فلسفة التاريخ » التى تمثل جانباً من تطوره السياسى النهائى .

ولقد انصب اعجاب هيجل بمكيافللى على جانبين أساسيين :

الأول : اهتمام ميكافللى بتوحيد ايطانيا الممزقة ، وهو ما كان هيجل يستهدفه بالنسبة لألمانيا .

الثانى : فصل ميكافللى بين الأخلاق والسياسة ، وهو موضوع عام عند هيجل ، فاذا كانت العواطف تصلح للعشاق ولا تنفع فى حقل السياسة ، فان الأخلاق تصلح لسلوك الفرد ولا دخل لها بسلوك الدولة . وهذان الجانبان مرتبطان برباط وثيق ، فعملية توحيد الدويلات المنقسمة الممزقة التى كان يصبو اليها كل منهما ، على الأقل فى فترة من فترات

---

(31) Z. A. Pelczynski : An Introductory Essay P . 16

(٣٢) ارنست كاسيرر : « الدولة والأسطورة » ص ١٦٩ ترجمة د. احمد حمدى محمود — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٠ .

حياتهما ، تطرح سؤالا هاما هو كيف يمكن أن تتم هـذه الوحدة ؟ ما هى الوسـائل التى يمكن أن تسـتخدم فى لم شمل هـذا الشتات المبعثر سـواء فى ايطاليا أم فى ألمـانيا ؟ يجيب هيجل اجابة اقرب الى المكيافللية وهو يسـتبق ما سوف يقوله بسمارك فيما بعد : « فى هـذا السياق ليس أمامنا خيـار فى اختيـار الوسـائل : لأن الأعضـاء المصابة بالغنغرينا Gangrenous limbs لا يمكن أن تعالج بالمـاء المعطـرة ، بل ان السم والبتر هما الأسـلحة المـألوفة المطلوبة كعلاج ، لهذا الموقف ، بغير أى ضرب من الرقة أو النعومة . ذلك لأن الحياة عندما تقف على حافة الهاوية والانهيار ، فان اعادة تنظيمها لا يمكن أن يتم فى هـذه الحالة الا بأقصى درجات العنف والقوة .. »(٣٣) . بل ان هيجل كثيراً ما يقتبس فى مقالة « دستور ألمـانيا » من كتاب « الأمير » لمكيافللى(٣٤) .

لقد كان هيجل فى عام ١٨٠٢ يؤمن ايماناً عميقاً بأن تجديد المـانيا وتوحيدها لا يمكن أن يتم الا عن طريق الحديد والدم ، لأن الناس لن يتنازلوا عن سلطاتهم وميزاتهم ومكاسبهم طواعية . وان كانت آماله فى ذلك الوقت قد اتجهت نحو النمسـا بدلا من بروسيا ، صحيح أن النمسـا وبروسيا هما البلدان الألمـانيان اللذان يملكان القوة الكافية للقيام بعملية التوحيد عن طريق الفتح والقهر وضم الدويلات بالقوة ، الا ان هيجل يضع آماله ، رغم ذلك ، فى النمسـا على اعتبار أن دستورها أكثر لبرالية كما أنه يقـدم ضمانات أفضل لقيام الامبراطورية التى سيعاد تكوينها بحيث تشكل دولة حرة . ولـما كان مكيافيللى وريشيليو ، فى نظر هيجل ، هما الشخصيتين البطولتين فى السياسة الحديثة فقد دعا كتاب الأمير بأنه : « التصور العظيم ، والصحيح لعبقرية سياسية حقيقية مقرونة بأنبل وأسمى

(33) Hegel : German Constitution P 770—221 (Eng. Trans by T. M. Knox)

(٣٤) قارن مثلا ص ١٢٧ ، ١١٨ و ١١٩ ... الخ .

الأغراض » ! ذلك لأن قواعد « الأخلاق الشخصية » كما قلنا لا تحد من أعمال الدول ، فليس للدولة من واجب أسمى من أن تحافظ على نفسها وتقويمها وتعمل على دعمها ، وإن كان هيجل قد عاد فى ملاحظاته الختامية الى القول بأن خلاص المانيا يعتمد فى الواقع على شيء أقرب الى المعجزة السياسية أنه يحتاج الى رجل عبقرى من الناحية السياسية الى ثسيوس Theseus فى صورة مكيافللية(٣٥) .

وهذه الخاتمة المأساوية تكشف عن تأرجح هيجل ، فى هذه الفترة على الأقل بين اليأس والرجاء ، ولهذا لا يصل الى نتيجة يقينية ، ويرد بعض الباحثين هذا الموقف الى نقص أساسى فى موهبته السياسية ذلك لأنه يفتقر الى الحكمة العملية والحس السياسى الواقعى رغم دقة تحليله النظرى الحاد . « غير أن هذا النقص ينبغى أن نبحث عن سببه فى مكان آخر ، فهو كمفكر ألمانى وطنى متحمس يأمل آمالا عريضة تتلخص فى أن بلاده سوف تتصلح ميزانيتها المتدهورة - وهو كملاحظ اكاديمى يعرف عن يقين أن عملية التفكك والفوضى وعدم التكامل قد وصلا الى مدى أبعد بكثير مما يمكن اصلاحه . ولهذا نراه ممزقاً بين الايمان والاستسلام(٣٦) بين الأمل والرجاء واليأس . لكن ربما كانت هناك أسباب أخرى تجعلنا نخفف حكمنا على هيجل : اذ كيف يمكن

---

(٣٥) تسيوس فى الأساطير اليونانية هو البطل الأتيكى الرئيسى ابن ايجوس .. Aegeus ملك اثينا ، خلص اتيكا .. Attica من بروكرست .. Brocrustes (قاطع الطريق الشهير) وغيره من الأشرار ، وذبح الميناطور ..... Minotaur (حيوان ظهر فى نصف رجل ونصف ثور) وحمل اريان ابنه مينوس ..... Minos وهزم الأمازون وتزوج ملكتهم ، وبعد موتها تزوج من فيدرا وكان ، باختصاراً ، بطلا أسطورياً مغامراً .

(36) Z. A. , Pelcznski : op cit p 16

لشاب فى الثلاثين ، بلا تجارب ولا خبرات سياسية سابقة أن يقدم حلا لمشكلة على هذا القدر من الضخامة مثل مشكلة اعادة توحيد المانيا ؟ ولا شك أن مجرد الاحساس بالمشكلة ومحاولة القاء الضوء عليها وتحليلها تحليلا واعيا وتوضيح التفكير الغامض الذى كان يدور حولها ـ كان بغير شك انجازاً كبيراً فى حد ذاته(٣٧) . وهو نفسه يقول « ان الافكار التى تتضمنها هذه الدراسة ليس لها من هدف آخر سوى تحسين فهم ما هو قائم ، ومن ثم تقديم نظرة أكثر هدوءاً ، وموقفاً أكثر اعتدالا كذلك .. »(٣٨) . وهو يقول بوضوح أنه لا يكتب « موجزاً » ليطلع عليه رجل السياسة أو رجالات الدولة ، اذ أن مثل هذا العمل لن يفيد فى شىء قط لأن رجالات السياسة لا يحتاجون الى مفكرين يقولون لهم ما الذى ينبغى عليهم أن يفعلوه ، فهؤلاء لديهم نظرة افضل الى التاريخ ، وفى استطاعتهم أن يأخذوا منه دروساً لهم يستفيدون منها ؛ غير أن الأمر يختلف عن ذلك أتم الاختلاف مع جماهير الشعب ، أو قطاع المتعلمين منهم على وجه التحديد ، فهؤلاء يحتاجون الى من يوضح لهم معنى الأحداث ويساعدهم فى تحصيل نوع من « الفهم والاستبصار » .

ومع ذلك كله فان هناك من يعتقد أن هذا المقال المبكر « دستور المانيا » جدير بالاشارة المسهبة الى حد كبير وذلك لسببين الأول أن هيجل كتبه عام ١٨٠٢ كخبير فى الشئون العامة ، ومن ثم فقد جاء خالياً تماماً من ذلك الحشد المذهل من التجريدات الجدلية التى جعلت فلسفته السياسية فيما بعد بمثل هذه الدرجة من الصعوبة . ومع ذلك كانت افكاره الرئيسية موجودة من قبل بدون تلك الأداة المنطقية ـ

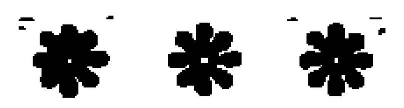
---

(37) Ibid

(٣٨) انظر الصفحات التى ترجمناها من « دستور المانيا » فيما بعد .

وثانيا أن « دستور المـانيا » اظهر بوضوح أن فكرة هيجل عن الجدل كان يحكمها غرض أخلاقى اكثر منه علمى · ففى الصفحات الافتتاحية أوضح أن الغرض من المقال هو أن ينمى فهم الأشـياء كما هى عليـه ، وأن يظهر أن التاريخ السياسى لا يعتبر تحكميا ، بل ضروريا · ان شـفاء الانســان ينشأ من التناقض بين ما هو كائن وبين ما يميل الى الايمان بانه ينبغى أن يكون وهـذا يحدث لأنه يتخيل أن الأحداث مجرد تفاصيل غير مترابطة وليست نظاما تحكمه الروح أو يأتى علاج هـذا التناقض بادراك أن ما هو كائن يجب أن يكون وأن ما ينبغى أن يكون هو نفســه ما هو كائن(٣٩) ·

ومع ذلك كله فان التصدير الاسبنوزى الذى صدر به هيجل مقاله لا يتسق تماما مع النتيجة المكيافللية التى انتهى اليها ، وربما أمكن ازالة التناقض اذا ما تذكرنا تاريخ كتابه مقال « دستور المـانيا » ـ لقد تجمعت أفكار المقال من الناحية العقلية فى مدينة « فرانكفورت » ، وهناك أيضا اكتشف رسـالته فى الحياة كفيلسوف نظرى وخطط أول موجز لمذهبه حيث كان تصور القدر أو المصير يقوم فيه بدور بارز ، وبعض جوانب مقاله دستور المـانيا يعكس هـذا الاهتمام الفلسفى ، ويتنبأ بجوانب هامة من فلسـفته فى الدولة والتاريخ · فهذا المقال ، اذن ، يقف عند بداية انطلاق هيجل من منظورين للسياسة : طريق رجل الدولة الشائك ، وهو يسير فيه من الآن فصاعدا حسب المناسـبات ، ثم طريق الفيلسوف وهو الذى اثبت أنه الطريق الملوكى للنجاح والشـهرة ·



---

(٣٩) جورج سباين : « تطور الفكر السياسى » الجزء الرابع ص ٨٤٩ ـ ٨٥٠ ·

الأعمال السياسية الثلاثة التى درسناها حتى الآن كتبها هيجل فى وقت قصير فيما بين ١٧٩٦ ـ ١٨٠٢ ولقد كانت هناك فيما يبدو طموحات عند هيجل فى هـذه الفترة ليلعب دوراً فى السياسة أو ليكون شـهيراً كرجل سياسة ، لكن القدر لم يكن كريماً معه ، فالمشـكلات التى تناولها كانت صعبة بطريقة غير عادية ، ولذا فقد كان على هيجل ، للأسف ، ان يحصر نفسـه فى نطاق الفلسـفة وحدها وان يكف فى ذلك الوقت عن محاولة التأثير فى الراى العام(٤٠) .

ولسوف نحاول فى الصفحات القادمة ان نقدم نماذج سريعة من هذا المقال الهام « دسـتور المـانيا » عن طريق ترجمة صفحات قليـلة من بداية المقـال .

---

(٤٠) وهيجل نفسـه يشير فى مقدمة مسودة لدستور المـانيا الى المـأزق الذى يصادفه الانسـان « عندما تحتم ظروف العصر على رجل ان يبتعد وينسحب الى عالمه الداخلى » « فلا تكون البدائل المطروحة أمامه سوى « الموت الدائم » اذا لم يفعل شـيئا أو « الكفاح لالغاء السلب الموجود فى العالم القائم » لكى يجعله جديرا بالحياة ، غير ان ذلك يجاوز قدرات الفرد » ـ قارن بلزنسكى فى المرجع السـابق .

نصوص من : ـ « دستور المانيا »
وقد ترجمناها عن مصدرين هما : ـ

— Hegel's Political Writings, Trans by T- M- Knox , Oxford at The Clarendon Press 1969

— The philosophy of Hegel , Translated by Carl Friedrich, The Home Modern Library

* * *

يقع المقال فى الأصل فى مائة صفحة ، ترجمنا جانباً ضئيلا منها ؛ والمقال يعالج العناصر الآتيـة :

مقدمة ـ مفهوم الدولة ـ القوة العسكرية ـ المسائل المالية ـ أرض الامبراطورية ـ القانون الدستورى ـ الدين ـ قوة المقاطعات ـ استقلال المقاطعات ـ نمو الدولة فى بقية أوربا ـ قوتان المانيتان عظيمتان ـ حرية المواطنين وحرية المقاطعات .

« دســـتور المـانيا »

مقـــــدمة :

٣ (١) ـ المـانيا لم تعد دولة ، لقد كان أسـاتذة القانون الدستورى القدامى ، يحاولون أن يضعوا فكرة العلم امام اذهانهم عندما يتناولون القانون الدستورى الألمـانى بالدراسة ٠ ومن ثم فقد شرعوا فى وضع تصور معين للدستور الألمـانى ٠ غير انهم لم يستطيعوا الاتفاق على راى واحد بصدد هـذا التصور وظلوا على هـذا الخلاف الى أن اقلع الأساتذة المحدثون عن هـذه المحاولة(٢) ٠ ولهذا فانك تجدهم الآن لا يعالجون القانون الدسـتورى على أنه علم بل على أنه وصف فحسب لمـا هو قائم من الناحية التجريبية ، دون ان يتطابق مع الفكرة العقلية ، كما انهم يعتقدون انهم لا يستطيعون أن ينسـبوا الى الدولة الآلمـانية الا اسـم الامبراطورية فحسب او الجسـم السياسى ٠

لم يعد ثمـة جدآل حول التصـور الذى يندرج تحته الدسـتور الألمـانى(٣) فلم يعد من الممكن وضعه تحت واحد من التصورات التى

---

(١) تشـير الأرقام الموضوعة الى رقم الصفحة فى طبعة لاسون Lasson

(٢) يقول روزنتسفيج Rosenzweig فى كتابه « هيجل والدولة Hegel und der Staat (ميونخ ، وبرلين عام ١٩٢٠ المجلد الأول ص ٢٣٩) ان هيجل كان يقصد الاشـارة الى كتاب مثل ج ٠ ج ٠ موزر J Mosrer وميير Majer وما كتباه عن دستور الدولة عام ١٨٠٠ ٠

(٣) يقصد نوع الدستور ـ فى تصنيف ارسطو لأنواع الدساتير ، الذى يندرج تحته الدسـتور الألمـانى ، وكان أرسـطو قد قسـمها ستة انواع ، ثلاثة منها صالحة هى : الملكية والأرستقراطية ، والديمقراطية والديمقراطية المعتدلة ، وثلاثة فاسـدة هى الطغيـان ، والأوليجاركية والديمقراطية الفاسـدة ويسميها الديماجوجية ـ وهيجل يقصد ، بالطبع ، النوع الأخير لأنه سوف يتحدث بعد قليل عما يسود المـانيا من فوضى ٠

لم يعد لها وجود(٤) ، فاذا كنا سنفترض ان المانيا لا تزال دولة ، فاننا لا نملك الا ان نوافق على ما يقوله عالم سياسة أجنبى(٥) ، فنسمى المجتمع القائم الآن فى الدولة باسم « الفوضى Anarchy » ، لولا أن الأجزاء التى تتألف منها قد جعلت من نفسها دولا من جديد ، ولا يزال مظهر الوحدة باقيا ، على الرغم من انه ليس ، فى الحقيقة رابطة موجودة الآن بقدر ما هو ذكرى لرابطة ماضية . ونحن نتعرف عليها كما نتعرف على الثمرة الساقطة تحت شجرة ، فنقول انها من ذلك النوع الذى نعرف انه ينتمى الى الشجرة من واقعة أنها ترقد تحتها . غير ان وضعها تحت الشجرة لا ينقذها من الفساد والتعفن ، ٤ ـ كذلك لا ينقذها من هـذا المصير ، أو من قوة العناصر التى تنتمى اليها الآن ، ظل الشجرة التى تسقط عليهـا .

ان صحة الدولة ، بصفة عامة ، لا تتكشف بوضوح فى هدوء السلم بقدر ما تتكشف فى لهيب الحرب(٦) . فالسلم هو حالة الاستمتاع والنشاط المنعزل لاسيما اذا كانت الحكومة من النوع الأبوى المتزن الذى لا يطلب من رعاياه سوى مطالب عادية مألوفة . أما فى حالة الحرب فان قوة الترابط التى تربط الأفراد جميعاً بالكل تصبح واضحة للغاية . وهـذا الترابط هو الذى يحدد مبلغ ما يطلب من الأفراد ، وقيمة ما يقدمونه هم بدافع من داخلهم ومن صميم فؤادهم سواء بسواء .

---

(٤) « فما لا يمكن فهمه لا وجود له » فى ترجمة فرانك ص ٥٢٧ .

(٥) يقصد فولتير الذى ذهب الى أن الامبراطور شـارل الرابع (١٣٤٧ ـ ١٣٧٨) « شرع الفوضى وأطلق عليهـا اسم الدستور » .

(٦) راجع دراستنا المفصلة عن هـذا الموضوع بعنوان « الحرب ومحكمة التاريخ » فى نهاية هـذا الكتاب .

ومن ثم فان ألمـانيا فى حربها مع الجمهورية الفرنسية تستطيع ان تتعرف بخيرتها ذاتها أنها لم تعد دولة ، فهى قد أصبحت واعية بوضعها السـياسى تماماً فى حالة الحـرب بقدر ما وعته فى حالة السـلم التى اطبقت عليهـا ، فالنتائج الممارسـة لهذه الحـرب هى ضياع أجزاء من اجمل الأراضى الألمـانية • وفقدان بضعة ملايين من سكانها ، فضلا عن عبء الديون (التى كانت فى الجنوب أقسى منها فى الشـمال) وهى ديون كانت امتداداً لبؤس الحرب فى وقت السلم ، وهناك نتيجة أخرى هى أنه الى جانب أولئك الذين وقعـوا فى قبضـة المحتلين والقوانيين والعادات الأجنبية ، سوف تفقد ولايات كثيرة أعظم خيراتها وأعنى به استقلالها • (وذلك فى الصفقة التى سوف تتم بها المساومة) •

ان السـلم يتيح الفرصة المناسـبة لكى نتدبر بامعان الأسباب الداخلية لهذه النتائج وروحها ، ونتأمل الطريقة التى يمكن أن تصبح بها هـذه النتائج – وحدها – المظاهر الخارجية الضرورية لتلك الروح ؛ كما أن هـذا التدبر سوف يناسب هو ذاته أى شـخص لم يذعن لمـا قد حدث لكنه يريد أن يتعرف على الحادث وضرورته • وهو بهذه المعرفة يفصل نفسـه عن أولئك الذين يرون الصدفة والعشوائية وحدهما ، الذين يقنعهم حمقهم أنه كان من الممكن ترتيب كل شىء بحكمة أكثر وبحظ أوفر • ان هـذه المعـرفة لعلى جانب عظيم من الأهميـة لمعظم النـاس .

٥ – لا لكى يتعلموا من التجربة كيف يسلكون سلوكاً أفضل من مناسبات قادمة ، بل لأنهم يستمدون الرضا والاشباع منها ، ومن الأحكام العقليـة الثاقبة على الأحداث الفردية التى تستلزمها •• ان أولئك الذين يسلكون ، بصدد المسـائل الكبرى ، على نحو يجعلهم يؤثرون فيها ، ويوجهونها هم قلة ضئيلة ، وعلى الآخرين أن ينتظروا الأحداث بفهم وبصيرة نافذين الى ضرورتها • ومن المحتمل ان يكون التعلم من تجربة الأخطاء التى هى تفجير للضعف الداخلى والحمق ، عند أولئك الذين يرتكبون هـذه

الأخطاء ، اقل من غيرهم اذ الواقع ان كل ما يتعلمونه هو تدعيم عاداتهم فى ارتكاب الأخطاء . اما الآخرون فقد يكون فى استطاعتهم التعرف على الأخطاء ، اذ تضعهم بصيرتهم فى موضع يستفيدون منه ، ان كان فى قدرتهم الاستفادة ، وان كانوا ، بالاضافة الى ذلك ، فى وضع مادى يجعلهم قادرين على ذلك ، فانهم بهذا يعدون ، فى الحالتين ، أصحاب بصيرة لا توجد عند الناس أثناء تفكيرهم فى حياتهم العامة .

قد لا يكون للأفكار المتضمنة فى هذا المقال اية غاية أو نتيجة اخرى ، عندما تنشر(٧) ، سوى استيعاب ما هو قائم ، وتبنى موقف أكثر اتزاناً ، وقبول معتدل للأمور على نحو ما هى عليه سواء فى القول أو العمل ، ذلك أن ما هو قائم ليس هو ما يجعلنا نتصلب . ونسخط ونعانى ، وانما هذا الذى لا يكون على نحو ما ينبغى أن يكون عليه هو الذى يسبب لنا ذلك كله . لكنا اذا ما عرفنا أن الوضع الحالى يجب أن يكون على هذا النحو بمعنى أنه بوضعه الحالى هو ما ينبغى ان يكون(٨) . والحق انه من العسير ، عادة ، على أواسط الناس أن يرتفعوا الى تكوين عادة عقلية هى التعرف على الضرورة والتفكير فيها ، فتراهم يحشرون حشراً مجموعة من الأفكار والتصورات بين الأحداث وتفسيرها ، ثم يجارون بالشكوى لأن ما حدث لم يتفق مع تصوراتهم ! والأعجب من

---

(٧) يقول روزنتسفيج Rosenzeig (المرجع السالف الذكر المجلد الأول ص ١٢٩) ان هيجل – فيما يبدو – لم يكن يكتب كتاباً مثل « الأمير » لمكيافللى يوجهه الى مخلص محتمل لبلاده ، لكنه كان يريد أن يتوجه الى بطل من نوع تسيوس Theseus على نحو ما هو واضح من مقاله قبل نهايتها .

(٨) قارن تصدير هيجل « لظاهريات الروح » .

ذلك انهم يتلمسون الأعذار لتصوراتهم وأفكارهم بحجة غريبة هى أنه فى حين أن الضرورة هى التى تسودها ، فان ما يسيطر على الأحداث هى الصدفة ! انهم فى الواقع يفسرون الأشياء على انها مجرد أحداث فردية معزولة ، ولا ينظرون اليها على أنها نسق System من الأحداث تحكمه روح واحدة ... ! وسواء أكانوا حقاً يعانون ما يحدث ، أو يشعرون بالهوة بين تصوراتهم وبين ما يقع من حوادث ، فانهم فى النهاية يجدون فى التمسك ، ٦ – بتصوراتهم وتأييدها ما يبرر لهم الشكوى بمرارة ما قد حدث ! ولقد أصابت العصور الحديثة الألمان ، بين ما أصابتهم ، بهذه الرذيلة ، فتراهم يتأرجحون فى تناقض مستمر بين ما يطلبون (وهو ما تمثله افكارهم ، وبين ما يحدث عكس ما يطلبون (أى الأحداث التى وقعت) وهكذا يحدث انفصام بين افكارهم الكاذبة غير الأمينة التى ينسبون فيها الضرورة الى تصوراتهم عن القانون والواجب وبين الواقع الذى يعيشون فيه ، ولا شىء يحدث وفقاً للضرورة التى يتحدثون عنها فى تصوراتهم . ولهذا أصبحوا يألفون التناقض المستمر بين الكلمات والوقائع ! وفى احيان اخرى يلجأون الى محاولة غريبة لجعل الأحداث مختلفة عما هو عليه فى الواقع وهى اعادة تفسيرها بطريقة مفتعلة حتى تناسب تصورات معينة .

ان من يحاول أن يتعلم ماذا حدث فى المانيا من مجرد دراسة التصورات لما ينبغى ان يحدث ، ومن مجرد دراسة القانون الدستورى فحسب فانه يخطىء خطأ جسيماً ، لأن انحلال الدولة ينبغى أن نتعرف عليه أولا بواسطة كل ما يحدث مخالفاً للقوانين السائدة ، ولابد أن يخطىء بالمثل كل من يفترض أن الأساس الحقيقى ، والسبب الفعلى ، لهذا الانحلال هو ذلك الضرب الذى تفترضه هذه القوانين . ان الألمان . بسبب هذه الأفكار ذاتها ، يبدون غير مخلصين ، اذ يظهرون بمظهر من يرفض التسليم بما هو قائم ، ولا يقبل ما هو عليه فى قوته الفعلية الداخلية . ويظل الألمان مخلصين لتصوراتهم عن الحق ، والقوانين ،

وان كانت الأحداث هى التى لا تريد أن تتطابق معها • وهكذا فان على الشعب صاحب المصلحة ان يكافح ليوفق بين النظرية والتطبيق من حيث الانفاظ وبقوة التصورات • غير ان التصوير الذى يشمل فى جوفه بقية التصورات الأخرى هو القول بأن ألمانيا بما هى كذلك لا تزال دولة ، لأنها كانت ذات يوم دولة ، ولا تزال الأشكال التى تستمد منها الحياة باقية على حالها حتى الآن •

٧ ــ ان تنظيم هــذا الجسد الذى يسمى بدستور ألمانيا ، قد تشكل فى حياة تختلف ظروفها أتم الاختلاف عن الحياة التى تلتها أو عن ظروف الحياة القائمة اليوم فالعــدالة ، والعنف ، والحكمة ، والشجاعة التى سادت العصــور المــاضية ، والشرف ، والدم ، والرخاء ، وحاجات أجيال طال موتها ، والعلاقات ، والعادات والتقاليد التى تلاشت معها : كل ذلك يعبر عنه فى هــذا الجسد ــ غير أن هــذه الصور شاخت وآذنت بالمغيب ! فذلك كله يعبر عنه بلغة المــاضى الذى انفصل عن حاضرنا الآن • ولهذا فان البنية الســياسية التى أقيمت فى المــاضى تقف اليوم معزولة عن روح العالم ! والبناء الذى أقيم فيه هــذا المصير لم يعد يدعمه مصير الجيل الحاضر ، انه يقف دون أن يكون ضروريا أو مفيداً لصالح ذلك الجيل ، وما يفعله معزولا عن روح العالم ، فى حين أن تلك القوانين فقدت حياتها القديمة ، ولم تعرف الأوضاع الحيوية الحاضرة كيف تشكل نفســها فى قوانين ، فظفر كل مركز للحياة بطريق خاص به ، وأقام نفسه بجهده الخاص ، وهكذا انحل الكل وتفكك ، ولم يعد للدولة وجود •

شــكل القانون الدســتورى هــذا يرتبط بعمق بما جعل للألمــان شــهرة فائقة ، وأعنى به احساسهم بالحرية(٩) ــ وتلك الغريزة للحرية

---

(٩) الاشــارة الى الحرية الألمــانية القديمة التى وصفها كثير من المؤرخين ، انظــر على ســبيل المثال « روح القوانين » لمونتســكيو **Montesquieu, Esprit des lois, xl, VIII** وكان من عادة الكتــاب الســياسيين فى عصر هيجل العودة المســتمرة الى المــاضى البعيد فى كتاباتهم •

هى التى منعت الألمـان ـ بعد أن أخضعت كل أمة أوربية أخرى نفسـها لحكم سـلطة سياسية مشـتركة ـ أن يفعلوا الشىء ذاته ٠ أن الشـخصية الألمـانية الصلبة ٨ ـ لم تصل بعد الى نقطة تضحى فيها بالأجزاء المنفصلة بمصالحها الشـخصية الجزئية من أجل المجتمع ككل حيث لابد أن يتحد الجميع فى جسد واحد ٠ وحيث يتم انجاز الحرية بالخضوع الحر لسـلطة سياسية عليا ٠

يرتبط المبدأ الخاص بالقانون الدسـتورى الألمـانى بعلاقة لا تنفصم بأوضاع أوربا فى العصر الذى كانت فيه الأمم تشـارك فى قوة عليا على نحو مباشر وليس من خلال توسط القانون(١٠) فقد كانت قوة الدولة العليا هى السـلطة العليا بين شـعوب أوربا ، وكان كل فرد يشـارك فى هذه السـلطة بضرب من ضروب المشـاركة الشخصية الحرة ، كما أن هذه المشـاركة كانت تعتمد على الارادة التعسفية أو الاختيار العشوائى ٠ ولم يكن لدى الألمـان الرغبة فى تحويلها الى مشاركة حرة مسـتقلة عن الارادة الحرة ، مشاركة تتألف من الكلية وقوة القانون ؛ بل انهم ، على العكس من ذلك ، أقاموا موقفهم الأخير(١١) ، على الأسـاس القديم للارادة الحـرة التى لا تعارض القـانون بل بالأحـرى التى لا تعرف أى قانون ٠

وينشـأ الوضع الأخير من الوضع السـابق ، على نحو مباشر ، وهو الوضع الذى كانت فيه الأمة شـعبا دون أن تكون دولة ، أعنى فترة الحرية الألمـانية القديمة ، فقد كان الفرد فى هـذه الفترة يعتمد على نفسه فى حياته ونشـاطه ، ولم تكن كرامته أو مصيره تعتمد على ارتباطه بطبقة ، وانما تعتمد عليـه هو نفسـه ، فهو ، متسلحاً بزناد فكره ،

---

(١٠) يقصد التطور المبكر لعصر الاقطاع ٠

(١١) من المحتمل أنه يقصد عصر « المستبد المستنير » ٠

وعضلاته القوية ، اما أن يشكل العالم وفقا لرغبته أو ان يسحقه هذا العالم ، وهو ينتمى الى الكل بفضل العادات ، والدين ، والروح الحية المستورة ، وبعض المصالح القليلة الأخرى ، اما بالنسبة للباقى فانه لم يكن يسمح لنفسه أن يحدده الكل ، فهو فى كدة ونشاطه يرفض ان يتقيد بالكل ٩ ـ والتحديدات أو القيود التى يفرضها على نفسه يضعها خالية من الشك والخوف ..

من هذا النشاط الذى يجعل من الذات مركزاً له ، والذى يسمى ، هو وحده بالحرية ، تتشكل مجالات لقوة الآخرين وفقاً للصدفة وقوة الشخصية ، وبغض النظر عن أية مصلحة عامة ، ونادراً ما يتقيد بما يسمى بالسلطة السياسية ، ومثل هذه السلطة يصعب أن توجد كحد يشكم الفرد .

وكلما انقضى الزمن اصبحت مجالات القوة هذه محدودة ، واصبحت أفرع القوة الكلية للدولة ملكية متعددة الأشكال ، ومستقلة عن الدولة ، موزعة بغير قاعدة او مبدأ ، وهذه الملكية لا تشكل نسقاً .. **System**
١٠ ـ من الحقوق ، بل تجمعاً **Collection** للحقوق بغير مبدأ(١٢) .
وليست القوى السياسية والحقوق والواجبات الخاصة بالأفراد لا تحددها احتياجات الكل . بل على العكس من ذلك نجد ان كل عضو ، وكل فرد فى التسلسل السياسى ، اعنى كل بيت من بيوت الأفراد ، وكل طبقة ، وكل مدينة ، وكل نقابة ... الخ كل فرد ذو حقوق ، وواجبات ، فى علاقته بالدولة ـ قد ظفر لنفسه بها . ولم يعد أمام الدولة من زاوية هذا التقليص لقوتها سوى أن تؤكد ان قوتها قد ضاعت . واذا ما فقدت الدولة كل سلطتها على هذا النحو ومع ذلك اعتمدت ١١ ـ ممتلكات الأفراد على قوة الدولة ، فان هذه الممتلكات لابد ان تصبح بالضرورة

---

(١٢) يقول فرانك ان هيجل يجد هنا متنفساً لكراهيته الشديدة للنظام الاقطاعى كمثال للتنظيم السياسى . أنظر ترجمته ص ٥٢٩ .

غير ثابتة ولا مستقرة ، مادامت ليس لها سند آخر سوى ذلك السند الذى يساوى صفراً !

ومن ثم فينبغى ألا تستنبط مبادىء القانون الألمانى العام من تصور الدولة بصفة عامة أو من تصور دستور خاص مثل دستور النظام الملكى ... الخ . فالقانون الدستورى الألمانى ليس علماً مشتقاً من مبادىء ، بل جمعاً لحقوق دستورية متنوعة أشد ما يكون التنوع اكتسبت بطريقة الحقوق الخاصة(١٣) . فالقوى التشريعية ، والقضائية .

---

(١٣) يرى نوكس (انظر الترجمة حاشية ١ ص ١٤٩) أن هناك فقرة من مسودة اخرى توضح فكرة هيجل . أما الفقرة فهى كما يلى :

« الحيازة تسبق القانون فهى لا تنشأ من القانون ، وانما يكتسبها الفرد ببساطة فى البداية ثم يجعلها بعد ذلك حقاً مشروعاً . وهكذا نجد ان القانون الدستورى الألمانى ، من حيث الأصل والأساس (أو من حيث حق الدولة الألمانية) هو بالضبط القانون الخاص (أو الحق الخاص) والحقوق السياسية هى حيازة مشروعة ، أعنى ملكية خاصة ، تماماً كما ان الفرد (ا) قد اكتسب أو ورث او باع أو اعطى منزلا ، فى حين أن (ب) اكتسب أو ورث او باع حديقة ، فكذلك عضو الطبقة (جـ) يملك ٦ فلاحين و (ب) ٦٠٠ ، فان عضو الطبقة (جـ) له امتيازات تشريعية تزيد أو تقل عن ٥ منازل ، وله العشر فى اكثر من ١٠٠ قرية ، فى حين أن الموظف (د) يشارك فى الهيمنة على ٢٠٠٠ مواطن ، وله حق التصويت فى حالة الحرب أو السلام فى ألمانيا كلها ، برغم أن احد أصحاب المراكز الرسمية الأخرى يلعب دوراً آخر فى القوة المهيمنة على مليون من الشعب ، وليس له حق التصويت فى الحرب والسلام فى المانيا . وهكذا نجد ان القوى التشريعية والقضائية ... الخ تنقسم وتتوزع بين أصحاب المناصب وبطرق متنوعة غاية التنوع ـ تماما مثلما تتنوع الطرق التى تنقسم اليها الملكية وتوزع بين الأفراد .... لكن الأساس الشرعى فى الحالتين واحد » .

والكنسية ، والعسكرية قد اختلطت وتشابكت وانقسمت ثم تجمعت بطريقة غير منظمة للغاية فى معظم الاجزاء المنفصلة بحيث تكون متعددة ومتنوعة ، تعدد وتنوع ملكية الافراد الخاصة ......

١٣ ـ ان نظام العدالة هذا ، الذى يعتمد على تدعيم كل جزء منعزلا عن الدولة ، يتناقض تناقضا صارخاً مع المطالب الضرورية للدولة التى تطالب بها كل فرد من أعضائها ، فالدولة تتطلب وجود مركز كلى هو الملك ، والمقاطعات حيث السلطات المختلفة المتنوعة ، والأعمال الأجنبيـة ، والقوى المسلحة ، والميزانيات التى تتناسب مع كل منها ، .... الخ لابد لها من الاتحاد فى مركز لا يكون مباشراً فحسب ، بل لابد أن تكون له ، فضلا عن ذلك ، قوة ضرورية يؤكد بها ذاته ويدعم قراراته ، بحيث يجعل الاجزاء الفردية تعتمد على نفسها . والاستقلال الكامل ، أو ما يقرب من الكامل ، يضمنه القانون للمقاطعات الفردية . واذا ما كانت هناك جوانب من الاستقلال ليست محددة بوضوح وبصراحة فى « ميثاق الانتخاب » أو قرارات الدياط Diet (المجلس النيابى) .... الخ فهى لا يزال التطبيق يقررها على اقل تقدير ـ وتلك شهادة قانونية أكثر أهمية واكثر شمولا من شهادة الآخرين جميعاً . ان الصرح السياسى الألمانى ليس شيئاً ١٤ ـ سوى مجموعة الحقوق التى انتزعتها الأجزاء الفردية من الكل . وهـذا النظام للعدالة الذى بينته بحرص حتى يجد أنه لم يبق للدولة قوة : هو جوهر الدستور .

علينا الآن أن نترك الاقاليم الشقية أو المقاطعات التعسة التى وصلت الى الخراب مع عجز الدولة التى تنتمى اليها ـ تتركها تجأر بالشكوى من وضعها السياسى ، ولنترك أيضا رأس الامبراطورية ، والطبقات الوطنية التى كانت أول من انطحن ، تنادى عبثاً على الآخرين. من أجل العمل المشترك المتعاون ، لنترك المانيا تسلب ، وتنهب ،

ويلحق بها الخزى والعار : فالمشرع الدستورى سيظل يعرف كيف يبين ان ذلك كله يتفق تماما مع القانون ، والتطبيق ، وأن هذه الضروب من التعاسة والشقاء عبارة عن تفاهات اذا ما قورنت بتطبيق نظام العدالة ٠ واذا كانت الطريقة غير الناجحة التى شنت بها الحرب قد اعتمدت على السلوك الفردى للمقاطعات ، فمقاطعة منها لم ترسل قط فرقة عسكرية تمثل بلادها ، والكثرة الغالبة من المقاطعات لم ترسل جنودا ، وانما أرسلت متطوعين جددا لا خبرة لهم بالقتال ، ومقاطعة اخرى لم تدفع « الأشهر الرومانية ... Roman Months »(١) فى حين أن

---

(١٤) المقصود « بالأشهر الرومانية » ، المبالغ التى جرت ، العادة ، أن تدفعها المقاطعات الى خزانة الامبراطور فى العصور الوسطى ابان الأشهر القليلة التى يقوم الامبراطور خلالها الى روما وعودته لتتويجه بواسطة البابا ٠ وفى عام ١٥٢١ حدد المجلس النيابى (دياط) لمقاطعة فورمز Worms عددا معينا من فرق المشاة والفرسان اختيرت لمصاحبة الامبراطور فى رحلته التى لم تتم الى روما ، لكنها ادت الى تحديد حصة دقيقة لما ينبغى أن تدفعه كل مقاطعة ٠ وفى عام ١٥٤١ منح الامبراطور مبلغا عبارة عن « ثلاثة أشهر رومانية » للدفاع ضد الترك ، وتم حساب كل شهر ب ١٢ فلورين .. Florin لكل جندى من الفرسان و ٤ فلورين لكل جندى من المشاة ، وعلى هذا النحو نشأ نوع من الضريبة القومية التى استمرت حتى عصر هيجل ، فكثيرا ما أصبح المجلس النيابى يجد انه من المناسب أن يخصص عددا من الأشهر الرومانية للامبراطور للانفاق منها على الأغراض العسكرية ٠ ومن هنا أصبح على كل مقاطعة أن تدفع عدة مرات ما يساوى ١٢ أو ٤ فلورين فى كل شهر رومانى لعدد من الفرسان أو المشاة على نحو =

مقاطعة أخرى سحبت فرقتها العسكرية فى ظروف بالغة الخطورة ٠

=

ما هو موجود فى قائمة الحصة لعام ١٥٢١ ٠ غير أن « الأشهر الرومانية » ليست ضريبة مستمرة ، فهى لا يمكن جبايتها الا باقتراع خاص من المجلس النيابى (الدياط) وهى تختلف عن الضريبة التى تسمى بضريبة الامبراطور والتى تجبى باسم المحكمة العليا والتى بدأت عام ١٥٤٨ ٠ ولو أن مجموعة من هذه المقاطعات أبرمت اتفاقيات سلام أو مواثيق حياد ، أو لو أنها جميعا ـ كل مقاطعة بطريقتها الخاصة ـ أبطلت أو ألغت الدفاع عن المانيا ، لكان القانون الدستورى أكثر ثباتا ، ولبرهنت رغم ذلك أن لها الحق فى أن تسلك مثل هذا السلوك ، أعنى لها الحق فى أن تضع الكل على حافة الخطر البالغ ، أو الضرر والأذى ، والبؤس والشقاء ، لأن هناك حقوقاً ، فان على المقاطعات فرادى ومجتمعة ، أن تحافظ ، وتحمى ، بدقة ، الحقوق من هذا القبيل ٠ أعنى حق الدمار الشامل ٠ وليس ثمة وصف مناسب يمكن أن نصف به هذا الصرح القانونى للدولة الألمانية سوى :

فلتحيا العدالة ، ولتسقط ألمــانيا !

Fiat Justitia, Pareat Germania

هناك سـمة فى الشخصية الألمــانية ليست سـمة عقلية بل هى ، الى حد ما ، سـمة نبيلة على كل حال وهى : أن الشخصية الألمــانية تنظر الى القانون بما هو كذلك على انه شىء مقدس أيا ما كان أساسه ونتائجه . فاذا كانت المــانيا تتلاشى كدولة منفصلة ومسـتقلة كما هو ظاهر الآن للجميع ، واذا كانت الأمة الألمــانية تتلاشى ، فى النهاية تماما كشعب ، فأنه لمشــهد ممتع أن ترى فى الطليعة ١٥ ـ بين أشـباح الدمار شـبح الخوف من القانون .

لابد أن يبرز أمامنا مثل هــذا المشهد للموقف السياسى وللقــانون فى المــانيا اذا ما أردنا ان ننظر الى المــانيا على انها دولة ، فموقفها السياسى لابد أن يعالج على انه فوضى شرعية ، وقانونها الدسـتورى لابد أن ينظر اليه بوصفه نسـقاً قانونياً يتعارض مع وجـود الدولة . لكن كل شىء يصبح منسجماً اذا ما قلنا أن المــانيا لم تعد دولة ، لم يعد ينظر اليها على أنها ذلك الكل السياسى المتوحد بل هى مجرد حشـد من الدول المسـتقلة ذات السـيادة . ومع ذلك فقـد قيل أن المـانيا هى « امبراطورية » ، وهى « جسـم سـياسى » ، وأنها تنـدرج تحت ما يسمى « الراس الامبراطورى المشترك » ، أو « الاتحاد الامبراطورى »، غير ان أحداً لم يحترم هــذه التسميات ، اقل احترام ، أو يعتبرها أسـماء مشروعة . أما الدراسـة التى تجعل التصورات موضوعاً لهـا فليس لديها ما تفعله ازاء تسميات من هــذا القبيل ، رغم أن تعريف التصورات قد يلقى الضوء على معنى هــذه التسميات ، وكثيراً ما كان ينظر ، بالطبع ، الى تعبيرات مثل « الامبراطورية » ، أو « الراس الامبراطورى » على انهــا تصــورات ، وهى لابد أن تتبـدل عنـد الضرورة .....

مفهـــوم الدولـــة

١٧ ـ لا يمكن لحشـد من الموجودات البشرية أن يطلق على نفســه أســم « الدولة » ، الا اذا اتحد معا للدفاع المشــترك عن ملكيته بأسرها . ان ما يفسر نفسه بوضوح فى هــذه القضية ، ومع ذلك من الضرورى أن ننتبه اليه ، هو أن مثل هــذا الاتحاد لا يقوم بقصد الدفاع عن نفســه فحسب ، بل ان النقطة الهــامة هنا أن يدافع عن نفســه بغض النظر عما يمكن أن تكون عليــه قوته ، وبصرف النظر عن احتمالات نجاحه . انه يقاتل بأســلحته الموجودة : وليكن بعد ذلك ما يكون فيما يتعلق بمسألة قوته أو نجاحه ! وأنت لن تجد أحداً قط ينكر أن المــانيا متحدة للدفاع عن نفســها بواســطة القوانين والكلمات ، لكنا فى هــذه الحالة ينبغى الا نفرق بين القوانين والكلمات من ناحية ، وبين الوقائع الموجودة بالفعل من ناحية أخرى . ان الملكيــة والدفاع من خلال الوحدة السياسية هما مسألتان ترتبطان أتم الارتباط بأرض الواقع ، فلا نكتفى بالقول بأن المــانيا ١٨ ـ مسـلحة تسليحاً مشــتركا ، لا من حيث الواقع والوجود الفعلى بل من حيث الكلمات والقانون ، فالملكية والدفاع عنها بواســطة الاتحاد السياسى يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالواقع ، وأيا ما كان وجودهما المثالى فهو لا يمكن أن يشــكل دولة .

ان الخطط والنظريات تلجــأ الى الواقع بمقــدار ما يكون فى استطاعتها أن تتحقق ، غير أن قيمتها تظل هى هى ســواء تحققت أم لم تتحقق . أما نظرية الدولة فهى تشــير الى الدولة والدســتور بقدر ما يكونان واقعيين بالفعل فحسب ، فاذا ما أعلنت المــانيا أنها دولة ذات دستور ـ رغم ان اشكالها الدستورية بغير حياة ، ونظرياتها بغير واقع ، ـ فانها تكون قد نطقت باطلا ، لكنها اذا ما وعدت بالكلمات أن تقــدم دفاعاً مشــتركاً فى عالم الواقع ، فلابد أن نعزو اليها ضعف الشــيوخة

التى لا نزال تريد وترغب لكنها لا تستطيع أن تنفذ ، او انعدام الأمانة بسبب عـدم الوفاء بالوعود .

لو أراد حشـد من الناس تشـكيل دولة ، فلابد لهم من تكوين سلطة عامة ، وقوة عسكرية مشـتركة ، ولا يهم ماذا يكون عليـه الدسـتور الجزئى المعين ، ولا الطريقة التى تتم بها العمليات الجزئية او سـمات الاتحاد . ١٩ ـ فهذه التفصيلات الجزئية يمكن ، بصـفة عامة ، أن توجد بطرق لا حصر لها ، بل انك قد تجد حتى فى بعض الدول المعينة ، عـدم تجانس تام وانعـدام كامل للنظـام فى مثل هـذه الأمور . ونحن فى معالجتنا لهـذا الموضـوع علينا أن نفرق بين ما هو أولا : ضرورى لكى يتحول الجشـد الى دولة وسـلطة عامة . وبين ثانياً : الشـكل الجزئى فحسب لهـذه القوة ، وما لا ينتمى الى دائرة الضرورة ، ولكنه ينتمى ، من حيث النظرية ، الى مجال الخير ان قليلا او كثيراً ، وينتمى ، من حيث الواقع الفعلى ، الى مجال الصدفة والهوى .

ولهذه التفرقة جانب هام جدا لسـلام الدول ، وأمن الحكومات ، وحرية الشـعوب ، فاذا ما طالبت السـلطة الشـعبية العامة الفرد وحده بما هو ضرورى ، وحصرت نفسـها فى تلك المهام او الترتيبات بحيث تنجز هـذا الحد الأدنى ، فانها تستطيع عندما تجاوز هـذا الحد أن تسـمح بالحرية الحية ، وبالارادة الفردية لدى المواطنين ، بل وتترك لهـذه الارادة مجالا ملحوظاً . وقل مثل ذلك فى السـلطة العامة فهى اذا ما تمركزت بالضرورة حول المركز ، اعنى الحكومة ، فسوف ينظر الأفراد اليها نظرة اقل عدائية ، او انهم لن ينظروا اليها بعين الشك والريبة عندما تطلب منهم ما تراه ضرورياً ، وما يمكن لكل فرد أن يراه لازما للكل . ولابد أن يؤدى ذلك الى تجنب الخطر لأنه اذا كان الضرورى والتعسفى معا متشابهين في قوة المركز بالنسـبة للسلطة العامة ، واذا كان الاثنان

مطلوبين بنفس الدرجة كما تفعل الحكومة ، فان المواطنين قد يخلطون بين الاثنين ، ويضيق صدرهم بالواحد قدر ما يضيق بالآخر ، فيسيرون بالدولة ـ فيما يتعلق بمطالبها الضرورية ـ الى حافة الخطر .

وفى هـذا الجانب من الوجود الفعلى للدولة الذى ينتمى الى الصـدفة ، لابد أن تدخل الطريقة الفعلية التى قد توجد عليهـا السلطة العامة ككل فى نقطة عليا من الوحدة ٢٠٠ ـ أما التساؤل عما اذا كان من يقوم بالسلطة شـخص واحد أو عدة اشـخاص ، وعما اذا كان هذا الشـخص ، أى هؤلاء الأشـخاص ، يولد بهـذا الامتياز أو انه اختير له ـ فذلك تساؤل لا أهمية له بالنسـبة لشىء ضرورى ، أعنى تحول الحشـد الى دولة ، كما أنه لا أهمية لانتظام الحقوق المدنية ، أو عدم انتظامها ، بين الأفراد الذين يخضعون للسـلطة العامة . وقل مثل ذلك بالنسـبة لنقطة اللامساواة فى الطبيعة ، والموهبة ، والطاقة الذهنية ، التى تضع فروقاً أقوى من اللامساواة فى العلاقات المدنية . ان الواقعة التى تقول ان الدولة تحصى بين رعاياها : فلاحين أنصاف أحرار (فى النظـام الاقطاعى) ، ومواطنين برجوازيين ، ونبلاء أحرار ، وأمراء لهم بدورهم رعايا يخضعون لأمرتهم ، والواقعة التى تقول أن العلاقات بين هـذه الطبقات الجزئية الخاصـة بوصفها أعضـاء فى الدولة لا توجد بصورة خالصة وانما مع تعديلات لا نهاية لها ـ هـذه الوقائع ليست عائقاً أو عقبة فى سـبيل تحول الحشـد الى دولة ، مثل الواقعة التى تقول ان الأجزاء الأعضـاء ، من الناحية الجغرافية ، فى الدولة تشكل مقاطعات ترتبط على نحو مختلف ـ كل منها عن الأخرى ـ بالقانون الدسـتورى الداخلى .

أما اذا ما تحدثنا عن القوانين المدنية ، والهيئة القضائية (ادارة العدالة) ، فانه لم يكن من الممكن لقوانين واحدة ، وتشريعات قانونية

متماثلة ، أن تجعل من أوربا دولة ، بقـدر ما كان يمكن لمجموعة من المقاييس والمكاييل والعملة الواحدة أن تجعلها كذلك ٠

٢١ ـ كما أنه لا يمكن للاختلاف بين هـذه المسائل أن يلغى وحـدة الدولة ، فاذا لم تكن الفكرة التى تقول ان التحديدات التفصيلية الأخرى للعلاقات التشريعية المتعلقة بملكية الفرد بازاء فرد آخر لا تهم الدولة بوصفها سـلطة عامة ـ (مادام على الأخيرة ان تحدد فقط العلاقة بين الدولة والملكيـة بما هى كذلك) ـ أقول ما لم تكن مثل هـذه الفكرة كامنة فى مفهوم الدولة ، فاننا نستطيع أن نتعلمها من المثل الذى تقدمه لنا ، تقريباً ، جميع الدول الأوربية ، فكلما زادت أصالة الدول وقوتها ، كانت قوانينها تمثل العكس تماماً لمـا هو منتظم ومطرد ٠ لقد كان لدى فرنسـا قوانين متعددة قبل الثورة ، ـ فضلا عن القانون الرومانى الذى كان سائداً فى كثير من المقاطعات ، والقانون البرجوندى **Burgundien** ٠ والقانون البريتونى **Breton** ٠٠٠٠ الخ(١٥) ٠ تحكم فى أماكن أخرى ، ولقد كان لدى كل مقاطعة ، تقريباً ، ولكل مدينة قانونها الخاص ، ولقد قال كاتب فرنسى ، بحق ، أن المسـافر عبر فرنسـا يمر بقوانين تتغير ، على نحو ما تتغير عادة ، جياد البريد ٠

وكذلك يقع خارج مفهوم الدولة عدد الطبقات الجزئية الخاصـة أو أفراد المواطنين الذين اشـتركوا فى صنع القانون ، وطبيعة المحاكم ، وما اذا كان منصب القاضى بالوراثة أم بالتعيين من قبل سـلطة عليا أو يقوم المواطنون بانتخابه على مسـئوليتهم المباشرة أو مفوضين من قبل المحاكم ذاتها ٠ ويقع خارج مفهوم الدولة ايضاً شـكل الادارة ، بصفة عامة ، فهى قد تكون متعددة الشـكل مثل ترتيب هيئة القضـاء ، وحقوق

---

(١٥) مقاطعات ودوقيات فرنسـية كانت لها قوانينها الخاصـة (المترجم) ٠

والمدن والطبقات ... الخ فجميع هـذه الأمور هامة للدولة غير ان الشـكل الذى تنتظم فيه لا أهمية له .

وهنـاك ، فى جميع الدول الأوربية ، عـدم مساواة فى توزيع الضرائب على الطبقات المختلفة طبقاً لمواردها المـادية ، ومن ثم فهناك عـدم مساواة ، الى حد كبير ، فى الجانب المثالى اعنى هناك عـدم مساواة فى حقوقها وواجباتها ، وفى أصل هـذه الحقوق والواجبات . يؤدى اللامساواة فى الثروة الى لا مساواة فى التوزيع والمسـاهمة فى مصاريف الدولة ، ولا يعد ذلك عقبة أمام الدولة بل ان الدول الحديثة ٢٣ ـ على العكس ، هى التى تقوم بذلك . ان الدولة لا تتأثر كثيراً بالأسـاس غير المتسـاوى الذى يتم الدفع بناء عليـه من طبقات النبلاء والكهنة ، والمواطنين ، والفلاحين ...(١٦)

وبغض النظر عن كل ما يسمى بالامتيازات ، فان الاختلاف بين الطبقات يزودنا بمبرر لاسهامها بنسب متفاوتة ، لأن النسـبة لا يمكن تحديدها الا بالنظر الى ما تنتجه كل طبقة ، وليس بالعنصر الأساسى لما يفرضه عليـه الضرائب أعنى ليس بالعمل الذى لا يمكن حسـابه وهو فى ذاته غير متسـاو(١٧) .

---

(١٦) « الى جانب الاختلاف بين الطبقات ، فان الاختلاف الهائل بين المقاطعات الفرنسـية معروف حيث يتفاوت سـعر الملح فى كل مقاطعة تفاوتاً هائلا عن المقاطعة الأخرى » من مسودة أخرى .

(١٧) يؤكد هيجل هنا أن الاختلاف الرئيسى بين الطبقات (وهى هنا الطبقات الاجتماعية) ، يرجع الى الاختلاف فى الثروة ، وان الشىء الجوهرى فى الثروة هو العمل الذى ينتجها ، غير ان ما هو كمى هو فحسب ما يمكن أن تفرض عليه الضرائب ، ومن ثم فان الضرائب لابد ان تفرض على الثروة وليس على العمل الذى يختلف اختلافاً كيفياً من شـخص الى شـخص آخر ، والذى هو بذاته لا يمكن أن يصبح كمياً ـ قارن : « اصـول فلسفة الحق » . فقرة رقم ٢٩٩ .

وكذلك يخرج عن مفهوم الدولة ، وعن مفهوم السلطة العامة ، التساؤل عما اذا كانت الأجزاء الجغرافية المختلفة تفرض عليها ضرائب مختلفة ـ وعما اذا كانت التغيرات والأنظمة الثانوية للضرائب التى تطرأ عليها(١٨) ، وكذلك القول بأنه من نفس الزاوية ، وفى المجال نفسه نجد مدينة تفرض عليها ضرائب للأرض ، وايجار للأرض بالنسبة للفرد ، والأعشار للكنيسة ، وللنبلاء حقوق الصيد ، وللكميون ٠٠ Commune حقوق رعى الماشية ٠٠٠٠ الخ وعما اذا كانت الطبقات المختلفة ، والهيئات المختلفة من كل نوع ترتبط بعلاقة فردية فى مسألة دفع الضرائب ، فان هذه الأمور كلها وما شابهها مسائل عرضية تظل خارج مفهوم السلطة العامة التى تنظر الى الكمية وحدها ، بوصفها مركزاً ، على أنها هى الجوهرية فى حين أن التفاوت فى نقاط الالتقاء بالنسبة للدخل هو مسألة ليس لها أهمية من حيث مصدرها : وهكذا نجد أن تنظيم الدخل بصفة عامة يمكن ان يقع خارج الدولة ذاتها ٠

هناك رابطة فضفاضة ، أو فى الحقيقة لا توجد رابطة على الاطلاق ، فى وقتنا الحاضر بين أعضاء الدولة فيما يتعلق بالعادات ، والتربية ، واللغة ، فالهوية بين هذه الأمور التى كانت تمثل أساس وحدة الشعب ، أصبحت الآن تعد من بين الأحداث العارضة ، التى لا يعوق طابعها جماهير الناس من تكوين سلطة عامة ٠ فلم يكن من الممكن لروما أو أثينا أو أية دولة حديثة صغيرة ، أن توجد اذا وجدت فيها تلك اللغات الكثيرة المتعددة التى تسود الامبراطورية الروسية ، ٢٥ ـ أو اذا ما وجدت بين مواطنيها عادات تختلف على نحو ما تختلف عادات التربية

(١٨) هذه العبارة التى تتكرر تشير الى المستويات المختلفة فى التسلسل التصاعدى فى الدستور الألمانى كما هى الحال فى المدينة ، القرية ، والكميون ٠٠ Commune (أصغر وحدات التقسيم الادارى فى المانيا وفرنسا وسويسرا ٠٠٠ الخ) ٠

والتعليم فى روسيا ، أو على نحو ما تختلف اللغة أو اللهجة فى المقاطعات المختلفة التى لا تجعل الناس يعرف بعضهم بعضاً آلا من حيث المظهر الخارجى فحسب ـ ومثل هـذا التنافر ، الذى هو فى الوقت ذاته اعظم عوامل القوة رجحاناً فى الامبراطورية الرومانية ، يمكن جداً التغلب عليـه ، تماما كما تفعل الدول الحديثة فتصل الى النتيجة نفسـها عن طريق روح المؤسسات السياسية وفنونها . وهكذا نجد أن عدم التماثل فى الثقافة والعادات هو ناتج ضرورى بقدر ما هو شرط ضرورى سواء بسواء لحالة اسـتقرار الدول الحديثة .

وحتى فى الدين الذى يعبر فيه الانسـان عن أعمق ذاته ـ والذى يمكن الناس من أن يتعرف بعضهم على بعض فى الدين كمركز محدد ، وبهذه الطريقة وحدها يستطيعون تجاوز تنوع علاقاتهم الأخرى ومواقفهم ، وهكذا يكتسبون الثقة بعضهم ببعض ويؤكد بعضهم بعضا ـ هاهنا فى الدين ، نجد هوية يمكن أن نعتقد أنها ضرورية ، غير أن هـذه الهوية هى كذلك شىء تستطيع الدول الحديثة أن تستغنى عنه .

لقـد كانت الوحـدة الدينية فى شـمال أوربا حتى يومنا الراهن الشرط الأساسى لقيام الدولة ، ولا يعرف شىء آخر غير هـذا الأساس ، وبدون هـذه الوحدة الأصلية لا يمكن أن توجد وحدة أخرى ولا ثقة . وهـذه الرابطة نفسها ، بالمصادفة ، قد أصبحت من القوة ٢٦ ـ حتى أنها تتحول فجأة الى توحيد الشعب الذى كان بدونها غريباً بعضه بالنسـبة للبعض الآخر ، وأعداء من وطن واحـد ، ولا تصبح الدولة التى تنتج على هـذا النحو مجرد مجتمع مقدس من المسيحيين ، ولا تحالفاً تتحد مصالحه ونشـاطه فى السعى وراء هـذه المصالح . بل على العكس من ذلك فهى كقوة عالمية واحدة ، وكدولة أيضاً ، وشعب واحد وجيش

واحد قد فتحت أرض الأجداد ، أرض الحياة الأزلية والزمانية فى حرب لها ضد الشرق(١٩) ٠

وقبل ذلك العصر ، وأيضا بعده ، عندما انقسم العالم المسيحى الى أمم لم يمنع الدين كذلك الحروب او يوحد الشعوب فى دولة أكثر مما يفعل عدم التماثل الدينى فى يومنا الراهن ، فان نقص هذا التماثل لم يمزق الدول فى أيامنا هذه ٠ فقد تعلمت السلطة العامة كيف تفصل نفسها ، بوصفها حق الدولة الخاص والبسيط ، عن السلطة الدينية وحقوقها ، وكيف تدعم استقرارها بطريقتها الخاصة وعلى نحو كاف بحيث لا تكون بها حاجة الى الكنيسة ، وتفصل الكنيسة عن الدولة ، وأن تعيدها الى وضعها الذى كانت تشغله فى البداية فى علاقتها بالدولة الرومانية ٠

ان النظريات السياسية التى عرضها ، من ناحية ، أدعياء الفلاسفة ومعلمو حقوق الانسان ، وتحققت ، من ناحية أخرى ، فى التجارب السياسية ، ترى أن كل ما حذفناه من المفهوم الضرورى للسلطة العامة (فيما عدا ما هو هام جداً ، اللغة ، التربية ، العادات ، الدين) يخضع للنشاط المباشر للسلطة العامة العليا ، وبتلك الطريقة التى تحسم بها هذه السلطة نفسها الأمر وتدفعه الى نهايته(٢٠) ٠

---

(١٩) الاشارة الى الحروب الصليبية ، ويمكن مقارنة هذه العبارة بما يقوله هيجل فى الموضوع ذاته فى كتابه « فلسفة التاريخ » ٠

(٢٠) الاشارة الى الدولة التى عرضها فشته فى كتابه « الحق الطبيعى » عام ١٧٩٦ والثورة الفرنسية ٠ قارن ترجمتنا العربية لأصول فلسفة الحق لهيجل ص ٨٧ وما بعدها العدد الخامس من المكتبة الهيجلية ــ أصدرته دار التنوير ــ بيروت عام ١٩٨٣ ٠

انه لمن المسلم به أن السلطة العامة العليا ، لابد أن يكون لها رقابة على هذه الجوانب المذكورة آنفاً من العلاقات الداخلية للشعب وتنظيمها (التى حسمتها الصدفة ، والقرارات التعسفية القديمة)(٢١)۰ ومن الواضح كذلك أن هذه الجوانب ينبغى ألا تعوق النشاط الرئيسى للدولة ۰ طالما أن هذا النشاط لابد أن يؤمن نفسه فى مقابل كل شىء آخر ، والى هذا الجد فاننا ينبغى ألا نبقى على النظم المساعدة للحقوق والامتيازات ۰ ومع ذلك فانها لميزة كبرى للدول القديمة فى أوربا ، وهى أنها بعد أن أكدت ما هو ضرورى للدولة ، تركت المجال فسيحا أمام نشاط المواطنين فى ميادين الادارة ، والتشريعات القضائية ، واختيار الموظفين الرسمين ، وفيما يتعلق بالمسائل السارية وتناول القانون والعرف ٢٧ ـ وتحديد المناصب الضرورية من ناحية وتدبير الشئون من ناحية أخرى ۰

حجم الدولة الحديثة جعل من المستحيل تماما تحقيق المثل الأعلى فى اعطاء كل فرد حر الفرصة للمشاركة فى مناقشة المسائل السياسية واتخاذ القرارات فيها ، لا سيما القرارات ذات الاهتمام الكلى ، اذ لابد أن تتمركز السلطة العامة فى مركز واحد لكى تقرر وتحسم فى هذه الموضوعات ثم تنفذ القرارات بوصفها حكومة ، فاذا كان هذا المركز آمنا على نفسه من غضب الجماهير ، واذا كان هناك منصب ثابت يتمثل فى شخصية الملك طبقا للقانون الطبيعى وبحق المولد ، عندئذ فان

---

(٢١) هذه الفقرة تستبق الفكرة التى سوف يعرضها هيجل فى كتابه « أصول فلسفية الحق » فقرة رقم ٢٦٠ لا سيما تصوره للمجتمع المدنى ، وقارن دراستنا القادمة لهذا الموضوع تحت عنوان « هيجل والمجتمع البرجوازى » ۰

السـلطة العامة تستطيع أن تترك ، بحرية وبلا خوف ، للأنظمة المساعدة ، جانباً عظيماً من العلاقات التى تنشـأ فى المجتمع وتتدعم طبقا للقوانين . وفى اسـتطاعة كل مقاطعـة ، وكل مدينة ، وقرية ، وخيمون .. الخ الاستمتاع بحرية الفعل ، وتنفيذ كل ما يقع فى داخل نطاقها .

القسم الثانى

« الكتـابات السـياسية المتـأخرة »

بـومة منيرفـا

« ان بومة منيرفا لا تبدا فى الطيران

الا بعد ان يرخى الليل سدوله .. » .

هيجل «فلسفة الحق» من التصدير .

« بـومة منيرفـا »

أما البومة فهى طائر معروف يتخذ منه الشرق رمزا للخراب والدمار ، وبالتالى للنحس والتشاؤم ، وذلك بسبب ميله الى العزلة والبعد عن دنيا الناس للحياة فى أماكن خربة ، فى حين يتخذ منه الغرب ، لنفس الأسـباب ـ رمزاً للحكمة لأن البعد عن الحياة والنفور من الضجيج ، والميل الى التفكير الهادىء هو من شـيمة الحكماء وحدهم .

والحق أن هـذا الطائر لا يبعد عن دنيا النـاس حباً فى الأماكن الخربة ، ولا ميلا لنزعة الدمار والخراب المتأصلة فيه كما يقول الشرق ، ولا شـغفاً بالتأمل والتدبر والتفكير كما يقـول الغراب ، ولكنه يبتعد لأسـباب بيولوجية خالصة ؛ فهو لا يستطيع الرؤية بوضوح فى ضوء النهار اذ تصاب عيناه بغشاوة من آثار ضوء الشمس ومن ثم لا يستطيع الطيران ولـما كانت أصوات الناس مؤذية ، والحركة والضوضاء ، بصفة عامة ، مصدر خطر لا يستطيع أن يتبينه بوضوح ، فانه يؤثر السـلامة ويبتعد عن الناس فى تلك الأماكن الخربة الهادئة حتى اذا ما جن الليل شرع فى الطيران فهو لا يعمل الا ليلا .

وأما منيرفا **Minerva** فهى الهـة الحكمة عند الرومان(١) .

وأما عبارة « بومة منيرفا » فهى اصطلاح خاص عند هيجل يرمز به الى الفلسـفة بصفة عامة .

هدفنا من هـذه الدراسة هو أن نعرض بايجاز لموضوع الفلسـفة السياسية عند هيجل أو الدور الذى تقوم به « بومة منيرفا » فى ميـدان

---

(١) وهى نفسـها الالهة اثينا **Athlna** الهة الحكمة والفنون عند الاغريق .

السياسة . ولكى نفهم هـذا الدور فهماً جيداً ، فان علينا أن نفهم أولا ما يعنيه هيجل بالفلسـفة بصفة عامة ..

يصف هيجل الفلسـفة ، فى بعض الأحيان بأنها « فكر ثان » أو أنها « فكر لاحق » فما الذى يقصده بهذا الوصف .. ؟(٢) . يقصد بالطبع أن هنـاك فكراً أول هو الذى ينشـأ فى حياة الناس اليومية فى شـتى المجالات ثم تأتى الفلسـفة لتجعل من هذا الفكر الأول موضوعاً للدراسة . ومن هنا فان علينا أن نلاحظ أمرين هامين :

الأول : أن الفلسـفة تأتى متأخرة بعد أن تكون الحيـاة قد دبت بين الناس بالفعل ، وقامت ألوان مختلفـة من النظم تتوجها الفلسـفة فى النهـاية .

الثانى : أن الفلسـفة لا تتعامل قط مع الأشـياء مباشرة ، فهى لا تدرس هذه الشـجرة ، أو هذه المنضدة .. الخ أو هذا النظـام أو ذاك من نظم المجتمع (فهذا ما يفعله علم الاجتماع) لا تدرس وقائع جزئية ولكنها تدرس الفكر فحسب ، أعنى لابد أن تتحول الشـجرة والمنضدة والمنزل .. الخ الى تصـورات كلية حتى تكون موضوعا للفلسـفة . وهـذا هو معنى قوله هيجل أحياناً أن موضوع الفلسـفة هو « الكلى » على اعتبار أن الفكر دائماً كلى ، وقوله أحياناً أخرى أن موضـوع الفلسـفة هو العقل ، لأن جوهر العقل هو الفكر .

لا تتعامل الفلسـفة أبداً الا مع الأفكار فى أى فرع من فروعهـا المتعددة ، ولمـا كانت هى نفسـها فكراً ، فهى لهذا السبب توصف بأنها

---

(٢) عرض هيجـل هذه الفكرة بالتفصيل فى الفقرة الثانية من « موسوعة العلوم الفلسـفية » .

فكر ثان ، أو فكر لاحق ، « أو فكر الفكر » وعلينا أن نوضح ذلك بقليل من الأمثلة :

خـذ مثلا « فلسـفة العلم » ـ فما الذى نقصـده بهذا اللون من التفلسف ؟ أن عالم النبات يدرس مملكة النبات ، وعالم الحيوان يدرس المملكة الحيوانية ، وعالم الجيولوجيا يدرس طبقات الأرض ، ويدرس عالم الفلك الأجرام السـماوية ومسارها ٠٠ الخ أى أن كل علم يدرس « جزئيات » هى وقائع العالم المباشرة ٠ لكن فيلسوف العلم لا يدرس أياً من هـذه الوقائع أو المعطيات ، وانما هو يأتى ليدرس « فكر » هذا العالم نفسه ، أنه يدخل فى رأسـه ، ان صح التعبير ، ليرى طريقته فى التفكير ، منهجه ، وفروضه ، تحققه من الفروض ، تجاربه المختلفة ٠٠ الخ الخ ٠ فالفيلسـوف هنـا يفكر فى « فكر العالم » فالفلسـفة هى « فكر الفكر » ٠

خذ مثلا آخر : « فلسـفة الأخلاق » لتجد أن السـلوك الأخلاقى ينشأ بالفعل مع نشأة العلاقات الاجتماعية المختلفـة فتظهر الوان من السـلوك توصف بالأمانة ، أو الخيانة أو الصـدق أو الكذب أو السرقة أو الشـجاعة ٠٠ الخ تصورات أو أفكار أخلاقية كثيرة تنشأ بفعل العلاقات الاجتماعية ، ثم تأتى الفلسـفة لتدرس هـذا الفكر الأخلاقى الذى يمثل المرحلة الأولى من الفكر ، أو « الفكر الأول » أو « المـادة الخام » للتفلسف ، فى حين أن الفلسـفة تمثل المرحلة الثانية التى هى غوص وراء الفكرة الأخلاقية لتعرف جذورها ولتقيم عليها نظرية أخلاقية ٠

وما يقال فى « فلسـفة العلم » وفى « فلسـفة الأخلاق » يقال كذلك فى الفلسـفة السياسية فالحياة الاجتماعية وما فيها من تنظيمات سياسية وقوانين ، ونظم ، وشرائع ، وحقوق ، وواجبات ٠٠٠ الخ ـ

تنشأ أولا وتدب الحياة السياسية بين الناس بالفعل وتتشكل ألوان من النظم ، وتظهر كثير من الأفكار السياسية . ثم تأتى الفلسفة لتجعل من هذه النظم والقوانين والشرائع (أى الأفكار السياسية بصفة عامة) موضوعاً لها ، ولتدرس ما يسمى بعلم الدولة (على اعتبار أن نظم الحياة السياسية كلها انما تكون داخل دولة) أو ما يسمى بعلم الحق على اعتبار أن موضوع « الحقوق » هو الموضوع الأول فى الحياة السياسية(١) .

معنى ذلك ان الفلسفة السياسية عند هيجل لا تدرس موضوعاً بعيداً عن دنيا الناس ، ولا تحاول أن تضع الأسس التى تبنى عليها الدولة المثالية انها ليست يوتوبيا **Utopia** جديدة كالتى حاول أفلاطون قديماً « وتوماس مور » حديثاً أن يؤسسها ، لكن هيجل على العكس من ذلك ينشب اظافره الحادة فى عالم الواقع الذى يعيشه الناس لكى يحلله ، ويدرسه وينقده ويرى مدى اتقانه ، او اختلافه مع العقل ، ولهذا فهو يقول فى فاتحة كتابه « فلسفة الحق » محدداً الموضوع الذى يدرسه :

« هذا الكتاب اذن ، هو يحتوى على علم للدولة ، لا يريد ان يكون أكثر من محاولة لفهم الدولة ، ورسم صورة لها بوصفها شيئاً عقلياً فى ذاته ، ولا بد له بوصفه عملا فلسفيا ، ان يكون بعيداً عن محاولة بناء دولة على نحو ما ينبغى أن تكون عليه الدولة ، والدرس التعليمى الذى يمكن أن يتضمنه ، لا يمكن أن يعتمد على تعليم ما ينبغى ان تكون

---

(١) قارن قوله عن علم الحق انه « تجميع وتنظيم للعوامل الجوهرية لمضمون ظل الناس يقبلونه ويألفونه لفترة طويلة » . أصول فلسفة الحق ص ٦٢ ترجمة د. امام عبد الفتاح امام دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨١ .

عليه الدولة ! انه لا يبين الا الكيفية التى ينبغى ان تفهم بها الدولة ، بوصفها عالماً أخلاقياً(١) :

هنا رودس ، هنا نقفز

Hic Rhodus, Hic Saltus

فمهمة الفلسفة هى أن تفهم ما هو موجود ، لأن ما هو موجود هو العقل .. »(٢) .

تلك هى مهمة الفلسفة السياسية عند هيجل ، دراسة ما هو موجود ؛ أو الحاضر ، وما هو حاضر بأسمى معانى الحضور هو العقل ، وسوف تعود الى هذه الفكرة بعد قليل .

فى النص السابق الذى اقتبسناه عن هيجل نجده يستخدم « مثلا » يقول « هنا رودس ، هنا نقفز » ، لكنه يلعب بالألفاظ فكلمة رودس **Rhodus** لا تعنى جزيرة رودس فحسب ، ولكنها تعنى أيضاً « وردة » . وكذلك فان كلمة .. **Saltus** تعني يقفز ولكنها تعنى أيضا « يرقص » . ولما كانت الوردة ترمز الى المرح والبهجة والمتعة فان وظيفة الفلسفة أن تجد المتعة فى الحاضر عندما تدرس ما هو موجود وتقوم باكتشاف العقل الكامن فيه . وبعبارة أخرى فان الفلسفة

---

(١) ما يقصده هيجل هنا « بالعالم الأخلاقى » هو « العالم الاجتماعى » فهو يستخدم كلمة الأخلاق بالمعنى الواسع الذى يجعلها ترادف الحياة الاجتماعية بصفة عامة .

(2) Hegel : The Philosophy of Right , p. II Eng. Trans by T - M - Knox.

وقارن ترجمتنا العربية « أصول فلسفة الحق » ص ٨٣ .

تستطيع أن ترقص طرباً من فرط المتعة لما تجده فى هذا العالم ، وهى ليست بحاجة الى تأجيل رقصها حتى تفرغ من بناء المثل الأعلى للعالم فى مكان آخر . « والعالم » المقصود هنا هو بالطبع العالم السياسى أو الحياة الاجتماعية بصفة عامة . ان العالم المثالى ليس له وجود الا فى رأس صاحبه بوصفه شيئاً يريد أن يبنيه فى الخيال » ! فلم يكن هيجل قط رجلا خيالياً ، أو صاحب مشروعات « وهمية » فهو القائل : « ان أصغر عمل يتحقق لهو اكبر قيمة من أجل فكرة لم تستطع أن تتجاوز دائرة الامكان ، فبقيت مجرد مشروع .. » !(١) .

ولهذا فان هيجل يستطرد فى نفس السياق ، وهو يشرح موضوع الفلسفة السياسة ليوضح المثل الذى اقتبسه ويزيده وضوحاً فيقول : « المثل الذى اقتبسناه الآن تواً يصبح على النحو التالى اذا ما عدلناه تعديلا طفيفاً :

« هنا وردة ، وهنا ينبغى لك أن ترقص .. »(٢) .

وبمعنى آخر هنا متعة فى هذا الحاضر القائم أمامك ، وهنا ينبغى لك أن ترقص طرباً عندما تدرس هذا الواقع ، واذا كانت الفلسفة السياسية تجد متعتها فى دراسة الواقع الحى الذى يعيشه الناس فان ذلك دليل قوى على ان فيلسوفنا لا يعرف شيئاً اسمه « الدولة الخيالية » أو « الدولة الفاضلة » التى لا وجود لها ، ولم يحاول ان يقدم للناس أرض الميعاد ...... **Promised Land** التى لا يخاف فيها المرء

---

(١) اقتبسه الدكتور زكريا ابراهيم فى كتابه « هيجل أو المثالية المطلقة » ص ١٠ مكتبة مصر بالفجالة ــ القاهرة عام ١٩٧٠ .

(2) Hegel : Philos . of Right p 12

وقارن ترجمتنا العربية السالفة الذكر ٨٣ ــ ٨٤ .

ولا يشفى ! فهيجل لا علاقة له بالفلسفة التى ينتجها صاحبها من رأسه ، فهو لا يؤمن بما نسميه نحن « بحك القريحة » لكى يخلق الفلسفة ! كما أن الفلسفة السياسية عنده لست « تفكيراً بالتمنى » وانما هى دراسة للواقع السياسى المعطى ، والفيلسوف الهيجلى ليس هو ذلك الرجل الذى يقبع فى « برج عاجى » بل ليس فى استطاعة الفيلسوف أن ينفصل ، فى رأى هيجل ، عن عالمه الذى يعيش فيه ـ يقول صراحة :

« لو اننا نظرنا الى المسألة من وجهة نظر الفرد ، لرأينا أن كلا منا هو ابن عصره وربيب زمانه . وبالمثل يمكننا أيضاً ان نقول عن الفلسفة أنها تلخص زمانها ، ولكن فى الفكر . وكما أن من الحمق أن نتصور امكان تخطى الفرد لزمانه . فانه لمن الحمق أيضاً ان نتصور امكان تجاوز الفلسفة لزمانها الخاص ، أو أن فرداً يستطيع ان يتجاوز زمانه »(٣) .

مهمة الفلسفة السياسية اذن هى دراسة هذا الواقع الفعلى القائم أمامنا ، وليس فى استطاعة الفيلسوف أن يخرج عن هذا الواقع ، أى ان يحلق فى سماء الخيال ، أو أن يخلق عالماً من الأوهام لا يعيش فيه احد الا هو نفسه . ذلك كله يخرج عن نطاق التفلسف الحق الذى يجعل همه فهم هذا الواقع الموجود أمامه فى العالم . ولو أنه تعمق فى دراسة هذا الواقع ، على نحو ما سوف نرى بعد قليل ، لما وجده شيئاً آخر سوى العقل وقد تموضع ، أعنى الأفكار العقلية وقد تحققت فى موضوعات خارجية بالفعل .

لكن هيجل لا يقدم « نصائح » للفلاسفة عندما يدرسون الموضوعات السياسية ، فيضرب لهم مثلا وينسى نفسه ، وانما يمارس هو نفسه هذا

---

(3) Hegel : Philosophy of Right , p 11

وقارن ترجمتنا العربية السالفة « لأصول فلسفة الحق » ص ٨٣ .

النشاط الفلسفى ، فقد قام بهذه المهمة التى يلقى بها على عاتق الفلسفة ، وأعنى بها دراسة الواقع السياسى الذى يعيش فيه الناس : هكذا فعل فى أول عمل سياسى قام به فى حياته وأعنى به رسائل « جان جاك كارت » المحامى السويسرى الذى فر من بلاده (الأراضى المنخفضة) الى فرنسا ليهاجم النظام الرجعى فى مدينة بيرن وقتذاك فقد اهتم هيجل الشاب بدراسة هذه الرسائل وترجمتها من الفرنسية الى الألمانية مع التعليق : ولقد اهتم بها هيجل لأنه تصادف أن أول عمل قام به فى حياته العملية هو أنه عمل مدرساً خصوصياً فى مدينة « برن » وهناك درس بدقة الحياة السياسية « الرجعية » فى هذه المدينة ، ونظام الحكم فيها مستخلصاً المبادىء السياسية التى تتفق مع العقل أولا تتفق معه .

وهكذا فعل هيجل ايضا عندما درس الواقع السياسى الذى تعيش فيه دوقيته « دوقية فورتمبرج » فكتب عن أحوالها الداخلية وقد قمنا بتحليلها فى دراسة بعنوان « ورقة عمل » ثم درس أصول الدوقية أيضاً عندما تحولت الى مملكة . ثم وسع من دائرة اهتمامه السياسى فدرس الأوضاع السياسية فى المانيا كلها فى دراسته الشهيرة « دستور المانيا » وقد سبق أن عرضنا لها بالتفصيل فى دراسة مستقلة .

كما درس الحدث الهائل الذى وقع فى عصره وكانت له آثاره السياسية العميقة فى أوربا بل فى العالم كله وأعنى به « الثورة الفرنسية » وهو موضوع سوف ندرسه فى مقال خاص ، وقل مثل ذلك فى مشروع لائحة الاصلاح النيابى فى انجلترا الذى كان آخر ما كتب من اعمال منشورة .

وهيجل فى هذه الدراسات الفلسفية التى قدمها فيما يسمى بالكتابات السياسية كان يحلل الواقع السياسى الذى يعيش فيه تحليلا فلسفياً يبرز

ما فيه من ضرورة أعنى ما فيه من جوانب عقلية(١) . ثم يتوج هذه الدراسات السياسية بكتابه الرئيسى « أصول فلسفة الحق » الذى هو مسح شامل للحياة السياسية كلها من زاوية عقلية تبرز الأسس العقلية للنظام السياسى ، أو قل انها تقيم الهيكل العظمى للحياة السياسية من الناحية العقلية التى تبدأ من المجرد الى العينى : الحق مجرداً عن الذات ، ثم تنتقل الى الذات أعنى الأخلاق الذاتية ، ثم تتبين أن هذه الذات لا يمكن أن تكون موجودة فى فراغ بل هى قائمة فى الأسرة والمجتمع المدنى وتنتهى بالدولة التى هى التحقق العينى للحرية عند هيجل .

مهمة الفلسفة ، اذن ان تفهم ما هو موجود ، وأن تدرس الواقع السياسى الحاضر الذى يعيشه الناس . وفى استطاعتنا ان نقول ان هيجل هنا يعارض صراحة تراث الفلسفة الكانطية التى قصرت معرفة الانسان وفهمه للظواهر الموجودة فى العالم على جانبيها الظاهرى فحسب ، فهو يعتقد ان عالم الواقع مفتوح أمام المعرفة البشرية وأنه فى استطاعة الانسان ان يصل لا الى الجانب الظاهرى فحسب كما يزعم كانط بل الى الماهية الحقيقية لهذا العالم ، ولا يقنع « بالزمانى » « والعارض » وانما فى استطاعته ان يتعرف على الأبدى الذى يقبع خلف ما هو حاضر . وهذا هو واجب الفلسفة السياسية ومهمتها . لكننا لابد ان نكون على وعى باستمرار بأن « هذه الماهية » أو « هذا الأبدى » هو قائم فى هذا الحاضر فهو ليس مجرد شىء زائل فحسب

---

(١) ولهذا السبب يذهب رينيه سيرو الى أن « ما كتبه هيجل من مؤلفات سياسية انما كان يستمده من وحى قضايا الساعة : قارن « هيجل والهيجلية » ...

René Serreau « Hegel et L'Hégélianisme » p. 71. p U. F. 1968

أو أن الحاضر عبث وباطل ينبغى تجاوزه بمنظار أعلى ، بل فى قلب هـذا الحاضر يقبع الأبدى ، ومن ثم :: « فلو أن التفكير ، أو العاطفة أو أية صورة شئت من صور الوعى الذاتى ، كانت تنظر الى هـذا الحاضر على انه شىء باطل ، وراحت تسـعى الى ان تتجاوزه بمنظار حكمة أعلى، فسوف تجد نفسـها فى فراغ . ولمـا كانت هى نفسـها لا تكون موجودة بالفعل الا فى هـذا الحاضر نفسـه فانها هى نفسـها بالتالى تكون مجرد عبث باطل »(١) .

فاذا سـلمنا ان هـذا الحاضر ليس مجرد عبث زائل وانما هو يتضمن أيضـاً عنصراً دائماً وأبدياً ، فان علينـا أن نبحث عن هذا العنصر . يقول هيجل :

« اذا سـلمنا بذلك لأصبح من المهم ان نتعرف على الجوهر خلف الزمانى العارض ، وأن نتعرف على الأبدى الذى يقبع خلف ما هو حاضر ، اذ أن العقلى الذى يرادف الفكرة يظهر (بأن يدخل فى قلب الوجود الخارجى من خـلال تحققه الفعلى) فى ثروة من الصور والأشـكال والتجسيدات لا حـد لها ، وهو على هـذا النحو يغطى نواته الداخلية بقشرة متعددة الألوان ، يشـعر معها الوعى أنه فى بيته ، فيقيم فيهـا فى بداية الأمر ، لكنها قشرة تجد الفكرة الشـاملة أن عليها أن تنفذ فيهـا أولا قبل أن تستطيع أن تصل الى النبض الداخلى وأن تشـعر به وهو يخفق فى الظواهر الخارجية .. »(١) ! ومعنى ذلك أن هـذا الحاضر

---

(1) Hegel : Philos. of Right p 10

وقارن ترجمتنا العربية لأصول فلسـفة الحق ص ٨١ .

(1) Ibid : p. 10 - 11

وترجمتنا العربية ص ٨١

الذى تقوم الفلسفة السياسية بدراسته ليس مجرد وهم باطل وأنما هو يعبر عن التحقق الفعلى « للعقل » وعلينا من ثم أن نبحث عن العناصر العقلية خلف المظاهر العابرة الكثيرة التى قد نجدها فى التنظيمات السياسية المختلفة ٠

وليست مهمة الفلسفة السياسية أيضاً ، فيما يقول هيجل ، أن تعلم الناس أو تعظهم أو تقدم لهم مجموعة من النصائح والارشادات عن كيفية بناء الدولة أو تنظيم حياتهم السياسية ، بل مساعدتهم على فهم الواقع السياسى الذى يعيشون فيه ، ان الفلسفة اذا ما تخيلت أن مهمتها أن تعلم الناس ، أو تعطيهم « دروساً تهذيبية » فى كيفية الحياة السياسية أو الطريقة المثلى للنظم السياسية ، أو أن تشرح لهم ما ينبغى أن يكون عليه العالم ، فانها فى هذه الحالة تكون قد ظهرت متأخرة جداً ٠ ذلك لأنها فى الحقيقة تمثل قمة النضج الذى يصل اليه المجتمع ٠ وعندما يظهر الفيلسوف فان الواقع يكون قد تم بناؤه تماماً ، وها هنا يكون ظهور الفيلسوف لا ليبنى الواقع من جديد وانما ليبنى مذهباً يعبر فيه عن هذا البناء المكتمل ، فهو فى فلسفته يلخص الهيكل العظمى العقلى للبناء المتحقق بالفعل ـ يقول هيجل :

« يبدو أن الفلسفة تصل متأخرة أكثر مما ينبغى لكى تقوم بهذه المهمة ، فهى بوصفها فكر العالم لا تظهر الا حين يكتمل الواقع الفعلى ويتم بناؤه ٠ ان الدرس الذى تعلمه لنا الفكرة الشاملة عن الفلسفة ، وهو أيضا الدرس الذى لا محيص عنه ، والذى نتعلمه من التاريخ : هو أنه حين ينمو الواقع الفعلى ويصل الى تمام نضجه فها هنا فقط ـ يبدأ المثل الأعلى فى الظهور ليجابه عالم الواقع ويبنى لنفسه فى صورة مملكة

عقلية ، ذلك العالم الواقعي ذاته مدركاً في وجوده الجوهري .. »(٢) .

وهو في هـذا النص يشـير الى الفلسـفة بهذا « المثل الأعلى » الذى يظهر ليواجه عالم الواقع ويشكل لنفسه مملكة عقلية هى نفسها هـذا العالم الواقعى مدركاً فى الفكر . وعندما تبدأ الفلسـفة رسم هـذه الصورة فان ذلك يعنى أن عالم الواقع قد انتهى تكوينه ، واكتمل نموه ، ووصل الى مرحلة الشيخوخة وكل محاولة لتجديد شـبابه انما هى محاولة محكوم عليهـا بالفشل مقدماً ، يقول :

« حين ترسم الفلسـفة لوحتها الرمادية : فتضع لوناً رمادياً فوق لون رمادى ، فان ذلك يكون ايذاناً بأن صورة من صور الحياة قد شاخت (أو أن شكلا من اشكال الحياة قد اصبح عتيقا) ، لكن ما تضعه الفلسـفة من لون رمادى فوق لون رمادى لا يمكن أن يجدد شباب الحياة ، ولكنه يفهمها فحسب . ان بومة منيرفا لا تبدأ فى الطيران الا بعد أن يرخى الليـل سدوله .. »(١) .

وهيجل فى هـذا النص الشـهير يقدم بوضوح فكرته عن موضوع الفلسـفة السياسية ، ان من يظن أنه جاء ليعلم الناس كيف يقيمون القوانين يكون قد اخطأ جداً لأنه تأخر عن موعده كثيراً فالقوانين قائمة بالفعل ، والنظم موجودة بالفعل . وكل من حاول أن يجدد شباب بناء متداع يكون قد جاء متأخراً أيضاً ، لأن الفلسـفة التى تمثل قمة التطور الحضارى

---

(2) Hegel : Philos . of Right p 12

وقارن ايضا ترجمتنا العربية لأصول فلسـفة الحق ص ٨٦ .

(1) Ibid . p 13

وقارن ترجمتنا العربية لأصول فلسـفة الحق ص ٨٦ – ٨٧

لا تظهر الا بعد أن يكمل الواقع بناءه وهى لهذا تصل بعد أن تكون النظم قد « شاخت » بالفعل ، وكل محاولات احيائها فاشلة ٠ وهيجل يستعير من « جوته » قوله فى فاوست على لسان شيطانه مفيستوفوليس :

« كل النظريات ياصديقى رمادية اللون

شجرة الحياة الذهبية هى وحدها الخضراء » ٠٠ !

واللون الرمادى يرمز بالطبع الى الحياة الباهتة الذابلة التى تعبر عنها النظريات الفلسفية ٠ والمقصود هو ان الفلسفة تعبر عن قمة البناء الذى هو « القمة والنهاية فى آن معاً » ، فبناء الواقع لأنه وصل الى القمة وبدأت النظريات الفلسفية تلخصه فى الفكر فان ذلك يعنى أنه على وشك الأفول ! وحين تقوم الفلسفة برسم لوحتها فانها لن تستطيع تجديد شباب هذا البناء الهرم ! فاذا كان البناء السياسى « شائخا » أو باهتاً فمهما وضعت الفلسفة من ألوان رمادية ، ومهما لونته من نظريات فلابد له أن ينهار ، ومهما دافعت عنه الأفكار الفلسفية فانها لن تعيده شاباً من جديد ٠ بل أنه حين يوضع فى نظريات فلسفية فان ذلك يعنى فى الحال انه وصل الى « تمامه » وانه على وشك الأفول ! ٠

وهيجل يستخدم فى هذا النص تلك العبارة الشعرية الشهيرة فيمثل الفلسفة بـ « بومة منيرفا » التى لا تبدأ فى الطيران الا بعد أن يرخى الليل سدوله ! وكذلك الفلسفة لا تبدأ عملها الا بعد أن يكون الواقع السياسى قد تم بناؤه !

والحق أن هذه الفكرة تبدو أكثر وضوحاً فى ميدان الفلسفة السياسية ، فلا يمكن أن يقال أن فيلسوف السياسة يأتى لكى يضع بناء

سياسياً أو يخلق نظماً سياسياً من العدم ، فالناس يدخلون فى علاقات اجتماعية متنوعة ، ويشكلون جماعات ومنظمات . ويقيمون مؤسسات سياسية مختلفة من الأسرة الى المجتمع الى الدولة قبل أن تظهر الفلسفة وهم لا ينتظرون ظهور الفلسفة لكى تعلمهم كيف يقيمون « النظم السياسية » ، أو كيف تبنى الدول : « فالقانون والحق ، وكذلك الأخلاق ، والدولة قديمة قدم معرفة الناس بها ، وقدم صياغتهم لها فى قانون عام ، وقدم أخلاق الحياة اليومية ، وقدم الدين .. »(١) . وتأتى الفلسفة لتجد أن الواقع الاجتماعى قد اكتمل بناؤه وهى عندما تعبر عن هذا الواقع فى صورة مذهب فلسفى فهى انما تعبر عن الأفكار السائدة التى تعتبر « محاور » أساسية يرتكز عليها بناء المجتمع . وإذا تساءلنا : وما الدور الذى تقوم به الفلسفة فى هذه الحالة . ؟ ! لكانت الاجابة ان مهمة الفلسفة « الكشف » عن الأفكار الأساسية أو الركائز العقلية التى يقوم عليها هذا البناء ، وكثيراً ما لا يعيها الناس فى حياتهم مع أنهم يسلكون بناء عليها ، تماماً كما تكتشف أن فلاناً من الناس يؤمن بفكرة السببية من تساؤلاته المستمرة عن أسباب للأحداث دون أن يكون هو نفسه على وعى بالايمان بهذه الفكرة ! فكما لو كانت الفلسفة تبحث عن « نافورة » السلوك البشرى التى تكون عادة مختبئة خافية عن الأعين ، تماماً مثل « نافورة الماء » التى تكمن فى باطن الأرض ولا يرى الا الرذاذ الذى ترسله ! وها هنا أيضاً تكشف الفلسفة مدى اتفاق الأفكار التى يقوم عليها هذا البناء مع العقل ، أو عدم اتفاقها ، وهل هذا البناء هو بناء ضرورى .... ؟ !

---

(1) John Plamenatz : History as the Realisation of Freedom , P. 33 in « Hegel's Political philosophy » Cambridgee 1971

وعلينا أن نلاحظ أن هيجل لا يرفض هنا المهمة التى كانت للفلسفة منذ سقراط عندما قام بالحفر وراء السلوك البشرى ليعرف الفكرة الأساسية التى أصدرت هذا السلوك ، وانما هو يقترب من تعريف أرسطو للفلسفة بأنها « علم المبادىء الأولى والعلل البعيدة » فكأنها محاولة الوصول الى الأسباب العقلية الأولى لما هو قائم أمامها ! وهو نفسه الدور الذى تقصره الفلسفة التحليلية فى القرن العشرين على النشاط الفلسفى رغم الهجمات العنيفة التى شنتها هذه الفلسفة على الهيجلية – يقول جون بلاميناتس :

« ان هيجل يريدنا أن نعرف أن الفلسفة لا ترفض ولا تنبذ المزاعم والافتراضات الكامنة تحت الخبرة العادية المألوفة ، أو التجربة الساذجة البسيطة غير المشوشة ، وانما هى تبدأ بفحص مضامين هذه التجربة . ولا شك أن هذا المنظور بمعناه العام سوف يعجب به كثيراً جورج مور G. Moore الذى كتب دراسته الشهيرة « تفنيد المثالية » مستهدفاً أساساً نقد تلامذة هيجل من الفلاسفة البريطانيين .. »(٢) .

توصف الفلسفة السياسية أيضاً بعدة مصطلحات ينبغى علينا أن نفهمها جيداً فهى توصف مثلا بأنها دراسة للعقل الموضوعى أو الروح الموضوعى ...... Objective Spirit فماذا يعنى هذا المصطلح الذى يتكرر مراراً عند هيجل ؟ !

لا شك اننا نستطيع أن ندرس الروح من الناحية الذاتية أعنى الروح أو العقل منظوراً اليه من الداخل على أنه عقل الذات الفردية فندرس

---

(2) Ibid .

فيه الادراك الحسى والشهوة أو الخيال والذاكرة .. الخ . وهذا ما يدرسه بصفة عامة علم النفس . لكنا نستطيع أن ندرس العقل عندما يخرج من جانبه الداخلى الى الخارج بحيث يتحقق فى العالم الخارجى ، وهذا العالم الخارجى ليس هو بالطبع عالم الطبيعة ، اذ ان العقل يجد عالم الطبيعة قائماً أمامه بالفعل ، لكن العالم الموضوعى هو العالم الذى يخلقه العقل لنفسه لكى يصبح موضوعياً اعنى لكى يوجد ويؤثر فى العالم الفعلى ، وهذا العالم الذى يخلقه العقل هو بصفة عامة عالم المنظمات ، والمؤسسات : كالقانون والمجتمع ، والدولة والعرف والعادات والحقوق والواجبات ، وكذلك الأخلاق الذاتية .... الخ .

لكن كيف يمكن للعقل الذاتى أو الروح الذاتى أن يتحول الى عقل موضوعى متحقق فى العالم الخارجى ؟ ! كيف يمكن للفكر الذاتى أن يكون موضوعياً أى يتحول الى موضوعات خارجية ؟ ! ألسنا نقول أحياناً ان الواقع الخارجى « يقيدنى » أو يتحكم فى أو يحدنى ... الخ فكيف نفسر ذلك .. ؟ !

تظل الفكرة العقلية « ذاتية » طالما بقيت فى رأس صاحبها لكنها ما ان تخرج وتتحقق فى العالم الخارجى حتى تنفصل عنه وتتموضع objecfified وهذا المتموضع objectification يعنى أن الفكرة قد تحققت وأصبحت « موضوعاً » ، خارجياً ينفصل عن صاحبها بل ربما يعود فيقيد حركته ويحد من تصرفاته ، يتحول الى قيد عليه . خذ مثلا فكرة تكوين الأسرة أنها تظل فكرة ذاتية فى رأس صاحبها عاماً أو أكثر وتكون الى هذا الحد ذاتية . لكنه عندما يشرع فى الزواج بالفعل : تتحول الفكرة من الداخل الى الخارج ، من العالم الداخلى الذاتى عند الفرد الى العالم الخارجى الموضوعى ، وتصبح مؤسسة اجتماعية موجودة

بالفعل ، بل تتحول الى ألوان من القيود تحد من تصرفات صاحبها وتتحكم فى سلوكه .! ها هنا تتحول الفكرة الذاتية الى مؤسسة موضوعية موجودة فى العالم الخارجى تتشكل فى زوجة واولاد ، ونفقات والتزامات .. الخ ولم يعد صاحبها فى استطاعته أن يتصرف على نحو ما كان عليه فى السابق وقبل أن تتموضع الفكرة التى اصبحت غريبة عنه ومستقلة تماماً عن ذاته !

على هذا النحو تتحول الأفكار – التى هى فى النهاية ما يسميه هيجل بالفعل الذاتى – الى موضوعات خارجية : فتصبح فكراً خارجياً مستقلا عن الافراد متمثلا فى أسر ، وقوانين وعادات وعرف .. الخ . وهذا هو العقل وقد تموضع ، او هو الروح الموضوعى الذى تدرسه الفلسفة السياسية عند هيجل .

توصف الفلسفة السياسية عند هيجل ايضاً بأنها وحدة الشكل والمضمون ، فما المقصود بهذا الوصف .. ؟ !

لقد سبق أن ذكرنا أن مهمة الفلسفية هى دراسة ما هو موجود ، وانتهينا الى أن ما هو موجود هو العقل ، لأن الفكر الذاتى قد تحقق فى موضوعات خارجية فأصبح فكراً موضوعياً ، وهكذا نستطيع أن نقول أنه « عقل » موضوعى . كما أننا قلنا ان مهمة الفلسفة هى ، ادراك العقل على انه وردة فى صليب الحاضر ، وبالتالى التمتع بالحاضر ، وتلك هى الرؤية العقلية التى توفق بيننا وبين الواقع الفعلى ، وهو توفيق وانسجام تمنحه الفلسفة لأولئك الذين ارتفع بداخلهم ذات يوم صوت باطنى يحثهم على فهم العالم .. (١) ! .

---

(٣) هيجل « اصول فلسفة الحق » الجزء الأول ص ٨٤٠ ترجمة د. امام عبد الفتاح امام .

ونحن فى دراستنا للواقع الفعلى بوصفه عقلا موضوعيا يمثل جوهر الواقع فاننا نصل بذلك الى ما يسميه هيجل بوحدة الشكل والمضمون . فالموضوع الأساسى الذى تدرسه الفلسفة السياسية هو « العقل » على نحو ما يتحقق فى موضوعات خارجة أعنى أنه « العقل الموضوعى » كما سبق أن ذكرنا . واذا فهمنا هذه العبارة كان من السهل أن نفهم قوله أنها وحدة الشكل والمضمون : « لأن الذات العارفة ذات عاقلة وهى فى مثل هذه الحالة تمثل العقل حين يكون ذاتا » ، أو هى الشكل ثم هى من ناحية أخرى تدرس « العقل القائم فى العالم بالفعل » أعنى تدرس العقل على نحو ما يكون موضوعاً أو مضموناً يقول هيجل فى هذا المعنى :

« وهذا أيضاً هو ما يشكل المعنى الأكثر عينية لما سبق أن وصفناه وصفاً مجرداً بأنه وحدة الشكل والمضمون ، لأن الشكل فى أكثر مغزى عينى له هو العقل بوصفه معرفة نظرية ، والمضمون هو العقل بوصفه الماهية الجوهرية للواقع الفعلى سواء أكان واقعاً أخلاقياً أم طبيعياً .

« واذا ما عرفنا وحدة هذين الجانبين فاننا نصل الى الفكرة الفلسفية . لقد كان عناداً كاملاً ، وهو عناد مشرف للبشرية . أن ترفض الاعتراف بشىء من الاقتناع الشخصى ما لم يقره الفكر .. »(٢) .

---

(٤) Hegel : Philosophy of Right, p. 12
وقارن ترجمتنا العربية السالفة الذكر ص ٨٤ — ٨٥ .

« هيجـل ... والثورة الفرنسـية »

١ – تمهيــــــد :

شهدت أوربا ابتداء من عام ١٧٨٩ أحداثاً بالغة الأهمية والخطورة ، لم تر لها مثيلا فى التاريخ عندما نشبت الثورة الفرنسـية وما تلاها من أحـداث وإضطرابات وحروب ثم تبلور ذلك كله فى النهاية فى قيـام أمبراطورية نابليون بونابرت التى غيرت خريطة أوربا السياسية .

فلم تكن الثورة الفرنسـية مجرد حدث داخلى هام فى فرنسـا وحدها ، وانما هى تعد أبرز حدث فى القارة الأوربية ، والعالم المتمدين بأسره فى أواخر القرن الثامن عشر ، ذلك أنها كانت ، بالفعل ، نقطة تحول أساسية فى تطور النظم السياسية والاجتماعية فى أوربا : فهى التى وضعت حداً للنظام الملكى القديم الذى كان يقوم على الاستبداد الذى استند الى « الحق الالهى » فى الحكم ، وفتحت بذلك الباب أمام نظم سياسية جديدة – ملكية أو جمهورية – تقوم على حرية الشـعوب والمساواة بين أفرادها ، وتستمد سلطانها من ارادة المواطنين وتعمل تحت رقابتهم بشـكل أو بآخر .

ومن هنا فقد طرحت الثورة الفرنسية الكثير من الموضوعات والأفكار الهـامة للنقاش منها مثلا الحرية ، ومبدأ المساواة ، والاخاء ، وأسس الحق العام ، وقواعد النظام الاجتماعى ... الخ – باختصار طرحت على بساط البحث ، وبقوة ، موضوعات الفلسـفة السياسية للمجتمع . فلم تكن مجرد أحداث بل حركة ثورية عنيفة تركت آثارها قائمة حتى بعد أن هدأت العاصفة ، فقد ظلت بذورها قائمة فى الحقل السياسى على نحو ما تمثل فى حركة القوميات التى نمت فى أوربا بعد عام ١٨١٥ .

ولقد لخص الكاتب الفرنسى « ماليه دويات » وضع الثورة الفرنسية عام ١٧٩٣ بقوله : « ان الثورة الفرنسية ثورة عالمية ، وليست خاصة بالفرنسيين وحدهم » فقد نادت بحقوق الانسان الطبيعية والقومية وشنت حروباً دفاعاً عن الحرية وحق الشعوب ، وكان الكتاب يطالبون بتدخل فرنسا لصالح شعوب أوربا ٠ ومن هنا فعندما ألف « الجيروند « Les Jirondins » حزبهم جعلوا من مبادئه الكفاح فى سبيل الحرية ، والدعاية للأفكار الفرنسية فى اوربا ، وحاول الثوار أن يوفقوا بين مذهبهم السلمى على نحو ما يظهر فى دستور عام ١٧٩١ ، والحرب التى شنوها فى أوربا فى عبارتهم الشهيرة : « حرب على الملوك ، وسلام مع الشعوب » ٠ وفى استطاعتنا أن ندرك مدى خطورة هذه العبارة اذا عرفنا أن أوربا كانت كلها تشكو مما شكت منه فرنسا : فالملوك يمارسون الحكم المطلق مع شعوبهم ، والطبقات الممتازة تهيمن على خيرات البلاد فى كل مكان ، وتتمتع الكنيسة ، باسم الدين ، بامتيازات لا حد لها ، وباعفاءات من الضرائب والواجبات تجاه الدولة ٠ والحريات العامة لا وجود لها الا فى ضمائر الأحرار ومخيلاتهم ولا سيطرة للشعوب ، ولا سلطان لها ، على مقدراتها ومصائرها ٠ ومن هنا فعندما نشبت الثورة الفرنسية اعتبرها الكثيرون بمثابة الخلاص من هذه الأمراض جميعاً بما قدمته من حلول لا تصلح لفرنسا وحدها بل لكثير من دول أوربا التى تعانى مما تعانيه فرنسا ٠ ومن هنا كانت الثورة فى بداية القرن التاسع عشر أمل الخلاص لشعوب أوربا المظلومة والمقهورة والمسلوبة الحقوق ، انها المثل الأعلى فى مجال التحرر والانعتاق مما تعانيه من ظلم ومحن ، فتأثرت بها واستنارت بكثير من مبادئها وقيمها الجديدة لمعالجة الفاسد من أوضاعها السياسة والاجتماعية(١) ٠

---

(١) انظر فى ذلك كله على سبيل المثال لا الحصر : « التاريخ =

٢ ـ ردود الفعـل :

اذا تساءلنا عن ردود الأفعال التى أحدثتها الثورة خارج فرنسا ، لكان فى استطاعتنا أن نحصرها فى ثلاثة على النحو التالى : رد فعل الحكومات ، ثم رد فعل الشعب ، وأخيراً ردود الفعل عند المفكرين .

(أ) أما رد الفعل عند الحكومات ، لا سيما فى ألمـانيا ، فقد كان عدائياً ، فزادت الحكومة من وسـائل القمع والارهاب ، وتشديد الرقابة على المواطنين ، وكذلك تنظيم الجاسوسية ، وتطهير الدوائر من جميع العناصر التى تراها خطرة عليها . وفضلا عن ذلك فقد منعت جميـع المنشورات الفرنسـية ، وحظرت على الصحف الخوض فى المناقشات السياسية ، كما زادت مقاومة الحكومة البروسية للجمعيات السرية فى ألمـانيا . وفى عام ١٧٩٢ منع نشر القسـم الثانى من كتاب كانط « الدين فى حـدود العقل المجرد » . وقرر « الدياط Diat » (المجلس النيابى) منع أى نشـاط لرابطات الطلاب . وفى ٤ يونيو عام ١٧٩٣

=

المعاصر : أوربا من الثورة الفرنسـية الى الحرب العالمية الثانيـة » تأليف د. عبد العزيز سـليمان نوار وزميله ص ١٩ وما بعدها دار النهضة العربية للطباعة ببيروت عام ١٩٧٣ ـ وأيضا « حركة القومية الألمـانية » ص ١٤ ـ ١٥ د. نور الدين حاطوم معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعـة الدول العربية القـاهرة ١٩٧٠ ـ وكذلك « أوربا فى القرنين التاسـع عشر والعشرين » ص ٤١ تأليف ح جرانت ، هارولد تمبرلى ـ ترجمة بهاء فهمى ومراجعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ـ مؤسسة سـجل العرب بالقاهرة .

وضعت الجامعات الألمانية تحت رقابة شديدة . وبدأت تهمة الالحاد توجه الى فشته Fichte ابتداء من عام ١٧٩٤ وهى السنة التى عين فيها أستاذاً للفلسفة بجامعة (يينا Jena) واشتدت حتى ادين عام ١٧٩٨ فاضطر الى مغادرة المدينة .

(ب) أما رد الفعل عند طبقات الشعب الكادح فقد كان تشيعاً عارماً للثورة الفرنسية وترحيباً بأحداثها وتوقعاً لزحفها ومدها اليهم . ولقد سبق أن ذكرنا كيف كانت الشعوب المقهورة ترى فى هذه الثورة الأمل والخلاص ، والمثل الأعلى ، فهى تحمل العلاج ، لا لمشكلات الشعب الفرنسى فحسب ، بل لجميع شعوب القارة مما تعانيه من ظلم مماثل .

(جـ) أما بين المفكرين والطبقات المثقفة فى المجتمع الأوربى عامة والالمانى بصفة خاصة ، يقول بلزنسكى : Pelczynski فى هذا المعنى : « لم تكن أحداث الثورة الفرنسية عملا هيناً سهلا ، وانما كانت ذات أحداث فعالة حتى على كبار المفكرين الألمان الذين عاشوا طوال عصر التنوير يعملون فى مجال عقلى خالص على خلاف عصر التنوير فى انجلترا وفرنسا الذى كان يحمل طابعاً سياسياً بارزاً . بيد أن الثورتين ، الفرنسية والأمريكية ، ومضاعفاتهما فى المانيا وبقية دول أوربا ، دفعتا بالمفكرين الى الدخول فى معترك الكتابات السياسية القومية ، فكانط مثلا لم يكتب من الناحية العملية كل مؤلفاته السياسية الا بعد اندلاع الثورة الفرنسية ، وكان أول عمل (٢) سياسى لفشته تأييداً ودفاعاً عن أحداث عام ١٧٨٩ » (٣) .

---

(٢) لعل بلزنسكى يقصد كتاب « فشته » تصحيح آراء الناس بالثورة الفرنسية عام ١٧٩٥ .

(3) Z . A . Pelczynski ; : An Introduction Essay to Hegel's Political Writings P. 8 Oxford University Press 1969

والحق ان كانط كان شديد الحماس للثورة الفرنسية لأنه وجد فيها تحقيقاً للآراء التي نادى بها في الحرية ، والاخاء ، والمساواة بين الناس والقضاء على التمييز بسبب الوراثة أو الميلاد ، والتسامح في المعتقدات والأديان وحرية الرأى ... الخ - ويبدو حماسه واضحاً من واقعة أنه ظل طوال حياته يسير على نظام يومى معين لا يحيد عنه ، لكنه خرق هذا الروتين يوم اندلاع الثورة الفرنسية ، وخرج مع خادمه العجوز « لامب ..... Lamp » على الحدود يستطلع الأخبار القادمة من باريس ! كما كتب فشته Fichte متأثراً بمبادىء الثورة الفرنسية يقول : « ان انحطاط التفكير في ألمانيا يرجع الى حكم الأمراء السيء ، لأنهم لا يعرفون للحياة الانسانية مثلا اعلى غير الرفاهية ، ان كل واحد منهم يتحدث عن رفاهيته في الحياة دون أن يراعى التعاون الذى يربطه بالضرورة مع مواطنيه .. الخ . ولقد كان هذا أيضاً هو شعور أعلام الفكر والأدب في ألمانيا : شيللر ، ياكوبى ، وهردر ، وفوس Voss كما تحمس للثورة أيضا طلائع الحركة الرومانتيكية : هيلدرلن ، وتيك Tieck ، وشليجل .. ولئن كان بعضهم قد تراجع بعد ذلك ، وانقلب ضدها ، بعد أن ساد الارهاب وقطع رأس لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت أكلت الثورة بنيها ، فقد ظل معظمهم أوفياء لمبادئها(٤) ، وفي انجلترا أشاد الشعراء بالثورة عند نشوبها فقال ورد زورث : « انها سعادة لا توصف أن يعيش المرء ليرى ذلك الفجر » ، « وان النعيم كل النعيم ان يكون المرء شاباً » . وبلغ من ايمان كوليردج بمنظمة الثورة التى تحتاج فرنسا ان « نكس رأسه وبكى اسم بريطانيا ! لأنها وقفت منها موقف المعارضة ! لكن هذا الحماس الجارف الذى سيطر

---

(٤) د. عبد الرحمن بدوى : « امانويل كنت » ص ١٠١ وما بعدها - وكالة المطبوعات بالكويت عام ١٩٧٧ .

على عقول المثقفين والمفكرين وقلوبهم فى المـانيا ، بدأ يهدأ ، ثم يفتر ويظهر لون من التردد فى تأييد الثورة خصوصاً بعـد مذابح سـبتمبر والارهاب الذى حدث فى باريس ، فقد شـعر كثير من المفكرين باليأس ، وكأن الثورة قد حادت عن طريق الجادة ، والهدى ، وانحرفت ، ففقدت الكثير من مقوماتها الأسـاسية التى جعلتهم يؤيدونها ولا سيما حقوق الانسـان ، والحريات العامة ... الخ . وأنقسمت الآراء حيالها ، فبعض المفكرين تحول عنها ، وأوجس منها خيفة ، ورأت الغالبية العظمى أن الثـورة انقلبت الى سـفك الدماء فأنهت بذلك الآمال العريضة التى عقدت عليهـا !

٣ ـ موقف هيجـل :

لم يختلف موقف هيجل من الثورة الفرنسـية عن غيره من المفكرين الألمـان فى ذلك الوقت ، فقد أندلعت الثورة وهو طالب التاسعة عشرة من عمره يدرس فى معهد توبنجن الدينى يرافقه «شلنج» ، و «هلدرلن» ، ويتحمس الشـبان الثلاثة للثورة الوليدة ، فقد كانوا فى ذلك الوقت يقرأون ـ فى مطالعاتهم الخاصـة ـ فولتير **Voltaire** ، وروسـو **Rousseau** ، ويتابعون الصحف الفرنسـية ، ويبشرون بانجيـل الثورة : الحرية ، والاخاء ، والمسـاواة حتى أنهم أنشـأوا نادياً سياسياً على غرار « نادى اليعاقبة »(٥) ، لمناقشـة تطورات الثورة ، ومطالعة

---

(٥) لم يكن معظم المتحمسين من الطلبة من « اليعاقبة » حقيقة ، بل ان اللفظ كان فضفاضاً يسـتخدمه أعداء الثورة فى المـانيا ضد كل متحمس لها ، كما أن الصحف لم تكن تصل كلها الى المـانيا ، بل أن كثيراً من أخبـار الثورة الفرنسـية كانت تعرف عن طريق الفرنسـيين المهاجرين الفارين من فرنسـا ـ الذين كانوا يشتبكون فى منازعات كثيرة

محاضر جلسات الجمعية الوطنية الفرنسية ، كما نظموا المناظرات من كل نوع ، تأييداً للثورة . ويقال ان هؤلاء الشبان الثلاثة ــ هيجل ، وهولدرن ، وشلنج ــ خرجوا صبيحة يوم جميل من أيام الآحاد فى ربيع عام ١٧٩٣ لزراعة « شجرة الحرية » فى ضاحية من ضواحى مدينة توبنجن(٦) . ويبدو أن أحد أصدقائهم ــ واسمه أوجست فيتسل ...... August Wetzel » عاد من استراسبورج .. Strasbourg وهو يحفظ كلمات وموسيقى « المارسييز ..... Marseillaise نشيد الثورة وهو الذى اقترح انشاء النادى السياسى على غرار « نادى اليعاقبة » ــ ووصلت الى مسامع دوق الولاية فى « شتوتجارت » أنباء عن حماسهم الثورى وتأييدهم الجارف للثورة الفرنسية ، فزار المعهد زيارة رسمية فى ١٣ مايو ١٧٩٣ وانتهز الفرصة ليناقش مع الطلاب « الفضائح » التى سمع عنها مثل : « قراءاتهم للصحف الفرنسية ، وترديدهم لأغانى الثورة ! » ونسيت « هذه المفاسد » الى زميلهم « فيتسل » الذى فر هارباً قبل وصول الدوق(٧) .

مع هؤلاء الشبان المتحمسين ــ أو من الرسائل التى كان يبعث بها الأصدقاء ــ قارن هاريس ص ٦٣ ــ ٦٤

H. S. Harris : Hegel"s Development

(٦) يعتقد « هاريس » أن هذه القصة غير حقيقية وأن مؤسس النادى السياسى هو « فيتسل » وان كان يعتقد أن حماس الأصدقاء الثلاثة للثورة الفرنسية كان جارفاً ، وانهم اشتركوا فى خطب حماسية ومناقشات عاصفة ، وأنهم أقسموا للولاء لمبادىء الثورة ونذروا انفسهم لمثلها العليا ! قارن (H.S. Harris,Hegel's Development : Toward The Sunlinght, p 64 — 65 and 113 — 115

(7) Ibid .

ومن ذلك نتبين مدى حماس هيجل الشاب للثورة الفرنسية ، حتى أنه اعتقد أن المثل الأعلى للاصلاح الشامل ، والبعث الجديد ، على وشك أن يتحقق ! وعلى ذلك فمن الضلال أن يقول كارل بوبر Karl poper في كتابه « المجتمع المفتوح وأعداؤه » : « ليس من قبيل المصادفات أن يكون هيجل — الذى تبنى معظم آراء هيرافليطس ونقلها الى المذاهب التاريخية الحديثة — لسان حال الرجعية ضد الثورة الفرنسية ... »(٨) أو أن يقول فى مكان آخر من نفس الكتاب : « لقد كان الاقطاع هو النظام السائد طوال العصور الوسطى ، وهو نظام لم يهدده شىء ، على نحو جاد ، قبل اندلاع الثورة فى فرنسا (ذلك لأن الاصلاح الدينى عمل على تدعيم الاقطاع وتقويته) — ومن هنا فقد بدأ القتال مرة أخرى من أجل المجتمع المفتوح مع ظهور افكار الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ — غير أن الحزب الرجعى عندما بدأ يستعيد قوته فى بروسيا عام ١٨١٥ ، وجد نفسه فى حاجة ماسة الى أيديولوجية يستند اليها ، ولقد كان دور هيجل أن يلبى هذه الحاجة ولقد لباها باحياء أفكار المعارضين الأول للمجتمع المفتوح : هيراقليطس ، وأفلاطون ، وأرسطو — فكما أن الثورة الفرنسية ، أعادت اكتشاف الأفكار الخالدة عن الحرية ، والاخاء ، والمساواة للناس جميعاً ، فان هيجل قد أعاد اكتشاف الأفكار الأفلاطونية المعارضة للثورة الفرنسية أعنى أفكاراً ضد العقل والحرية ... »(٩) . فمن الضلال أن يفهم « تشريح » هيجل للثورة الفرنسية فيما بعد على أنه اكتشاف « أفكار معادية للعقل والحرية » . ان ما يقوله « بوبر » ، وما ذكره رودلف هايم ... R. Haym من قبل فى كتابه « هيجل وعصره ...... Hegel und seine Zeit

---

(8) K.R. Popper : « The Open Sosiety and its Enemies » , Vol I, p. 17 Routledge & Kegan Paul, Ldndon 1968

(9) Ibid , p. 78

من أن النشوة الطلابية التى استقبل بها هيجل الثورة الفرنسية ، سرعان ما تبخرت حتى صار هيجل فيما بعد من أشد الناس عداوة للثورة ، وأكثرهم اتزاناً فى الحكم ، فما لبث عقله الرصين ان استعاد كيانه بعد وقت قصير جداً واستعاد جوهره المحب للقانون والنظام والتوازن والاعتدال عندما صدمته فظائع آلارهابين والدماء التى أراقوها ، فنفر من التطرف فى المناظر الثورية • وليس فى وسعنا أن نعثر على آثار لحماسة الشباب الثورية عند هيجل ، فيما بعد ، بعد الفترة التالية مباشرة لسنوات الدراسة • وفيما بعد فى الفترة التى كان فيها هيجل يعمل مربياً فى أحد البيوت فى مدينة برن ••• »(١٠) ، ولا شك أن فى وصف « رودلف هايم » هنا الكثير من المبالغة لا يعادلها - فى الطرف المضاد ، سوى مبالغة بلزنسكى الذى يقول(١١) : « ان هيجل الشاب قد شعر بحماس غامر نحو الثورة الفرنسية ، واعتقد أن عام ١٧٨٩ علامة على بدء عصر جديد فى تاريخ العالم ينبغى ألا يدهشنا ، فكثير من معاصريه فى ألمانيا ، وخارجها ، كانوا يشاركونه هذا الشعور نفسه • لكن الأمر المهم الذى ينبغى علينا أن نلاحظه هو أن هيجل ، على خلاف معظم الشبان والمفكرين فى عصره ، قد حافظ على هذا الايمان طوال عهد الارهاب ، وفترة حكومة الادارة ، ونابليون قنصلا وامبراطوراً ، فهو فى فترة نضجه وعمره ٤٧ سنة أعنى عام ١٨١٧ وبعد أن نشر كتابه الفلسفى العظيم « علم المنطق » ، وبعد أن عين فى وظيفة أستاذ بجامعة هايدلبرج ، كتب يصف فترة الثورة وما أعقبها من أحداث بقوله : « انها ، ربما كانت أغنى السنوات فى تاريخ العالم ، وهى بالنسبة

---

(١٠) اقتبسه د• عبد الرحمن بدوى فى كتابه « حياة هيجل » ص ١٩ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت عام ١٩٨٠

(11) Z . A. Pelczynski; : An Introductory Essay to Hegel's Political writings , P 30 Oxford University Press 1964.

لنا اكثر تثقيفاً لأن عالمنا وافكارنا ينتميان اليها »(١٢) ، وقوله : « لابد لنا من أن ننظر الى الثورة الفرنسية على أساس أنها صراع القانون العقلى الدستورى ضد مجموعة القوانين الوضعية والامتيازات التى كبلتها ... »(١٣) .

والحق أن القول بأن هيجل كان من أعداء الثورة فيه الكثير من المبالغة والتجنى تماماً كالقول بأن حماسه للثورة وهو شاب استمر طوال أحداثها ، والأدنى الى الصواب بأن نقول أنه انفعل بالثورة وهو طالب وغمرته النشوة بانتصار الأفكار والمثل العليا التى كان يتطلع اليها ثم خاب أمله عندما تحولت بعد ذلك الى دمار وخراب لا مثيل لهما ولذلك فقد راح يسأل نفسه لماذا تحولت الثورة من البناء الى التدمير ؟ ! وكيف تبخر الأمل ، واصبح حلماً ؟ ! وكيف يمكن لنا أن « نحلل » الثورة من منظور الأحداث التاريخية لنعرف ، على وجه الدقة ، ما الذى حدث ؟ ! لكن علينا أن نضع فى اعتبارنا دائما : « أن هيجل فى اعترافه بفشل الثورة ، وادانته لعهد الارهاب الذى أعقبها لم يتخذ موقفاً رجعياً قط وانما ظل على ايمانه وتأييده للمبادىء الثورية ... »(١٤) ،

(12) Hegel's Political writings , P. 282

(13) Ibid, p. 283

(١٤) مما تجدر ملاحظته أن هيجل احتفظ بايمانه بالمبادىء الثورية رغم كل ما حدث ، بل اننا نراه فى رسالة كتبها عام ١٨٠٣/١٨٠٤ يصف عهد الارهاب بأنه كان مرحلة انتقال ضرورية من النظام القديم الى حقبة جديدة فى تاريخ العالم ، ويبدو من الرسالة أن هيجل كان يعتقد أن الارهاب كان ضرورياً لكسر مقاومة المجتمع القديم ، وحتى يسمح لنابليون بأن يقيم الدولة الحديثة فوق رماد الثورة قارن

— Burke, Hegel and The French Revolution by J. F. Suter in « Hegel's Political Philosophy p. 52

فهو لم ينتقد الثورة الفرنسية لأنها رفعت مبادىء ، أو شعارات : الحرية والاخاء والمساواة كما يقول بوبر ، وانما هو ينتقدها لانها فشلت فى ان تضع هذه المبادىء موضع التطبيق ، واخفقت فى تحويل الشعارات الى واقع • غير ان هيجل يؤكد ، طوال هذا النقد ، أن هناك تقدماً هائلا أحرزته الثورة باعلانها لحق المواطن فى أن يطيع فقط القوانين والمؤسسات التى تتفق مع مطالبة الذاتية(١٥) • وهو يعتقد أنه لا يمكن ، فى العصر الحديث لنظام من القوانين أن يبقى قوياً ما لم يتعرف فيه الانسان على آماله وطموحاته الحرة ، وأن يكون على استعداد لأن يموت من اجله • ومن هنا كانت الثورة الفرنسية ، فى نظر هيجل انجازاً عظيماً بمقدار ما جعلت الناس يدركون حقوقهم ، وبمقدار ما علمتهم ان يعملوا فى السياسة بوعى وفكر ، أما فشلها فهو يرجع الى أنها لم تحقق الحل السياسى الذى تصورته بحيث يكون له صفة الدوام(١٦) •

وهذا هو الفرق بين موقف كل من بيرك المفكر الانجليزى ، وهيجل من الثورة الفرنسية فعلى حين أن الأول كان يرى فى الثورة فسخاً كاملا مع الماضى وتعدياً جذرياً لكل الأنظمة والسلطات التقليدية ، فان هيجل كان ينظر اليها على أنها مرحلة جديدة وهامة فى خلق الدولة الحديثة • أن الثورة الفرنسية تمثل عند هيجل نقطة تحول فى التاريخ لأنها تعد أول محاولة لانجاز الحرية وتحقيقها لكل الناس عن وعى وعن ارادة ، أعنى أنها حاولت ان تحقق حرية كل فرد • لقد اتجهت جهود

---

(15) Hegel : Lectures on the Philosophy of History p. 447 Eng. Trans by J. Sibree

(16) J. F Suter : Burke , Hegel and The French Revolution p. 56

الناس فى الماضى الى تحقيق الحرية ، لكن الناس اصبحوا ، بعد الثورة الفرنسية فحسب ، على وعى بهذه الجهود(١٧) .

غير أن هذه الأفكار العامة ينبغى أن تتحدد اكثر من ذلك بحيث نفهم كما يقول هيجل نفسه « المسار الذى سلكته الثورة فى فرنسا ، وكيف أصبحت هذه الثورة جزءاً من تاريخ العالم ... (١٨) وذلك يعنى أن نقف لندرس كيف يحلل هيجل الثورة الفرنسية فى شىء من التفصيل .

٤ ـ تشريح هيجل للثورة الفرنسية :

اذا أردنا أن نفهم كيف « شرح » هيجل الثورة الفرنسية ، فان علينا أن نفهم أولا تصوره للارادة أو الحرية من حيث الشكل والمضمون ، وهو نفسه يبدأ فى فلسفة التاريخ بالحديث عن جانبين للحرية : « الأول هو جانب المضمون أو الجوهر أو الموضوع نفسه الذى تنجزه الحرية بوصفها فعلا حراً ، والثانى هو جانب الشكل أو الصورة ، وصورة الحرية هى وعى الفرد أثناء نشاطه ، فالحرية هى أن يتعرف الفرد على نفسه فى الأفعال التى يقوم بتحقيقها وأن يجدها حقاً أفعاله ، وان يجد أنه كان من بين اهتماماته حقاً أن يصل الى النتيجة التى وصل اليها .. »(١٩) .

وهو يعرض فى كتابه « أصول فلسفة الحق » للفكرة نفسها عندما

---

(17) Ibid , p, 57

(18) Hegel's Philosophy of History p. 467 Eng Trans, by Sibree .

(19) Ibid .

يحلل الارادة التى هى أساس العمل السياسى كله أو ما يسميه « بالحق Right » يقول : « أساس الحق هو الروح بصفة عامة ، ومجاله الخاص ونقطة بدايته هى الارادة ، والارادة هى التى تكون حرة بحيث تشكل جوهر الحق وغايته فى آن معاً ؛ فى حين أن نسق الحق هو مملكة الحرية ، وقد تحققت بالفعل ، أو هو عالم الروح وقد خرج من ذاته نفسه على أنه طبيعة ثانية .. »(٢٠) ، علينا أن ننتبه جيداً لهذه النصوص الهيجلية التى سوف نقيم عليها نقد هيجل للثورة الفرنسية : فهو هنا يحدد الحياة السياسية للانسان بأنها الحياة الروحية ، أو أن نسق الحق هو مملكة الحرية ، لكنه يشترط أن تتحقق هذه الحرية وهذه الحياة الروحية بالفعل فى العالم الخارجى فى شكل موضوعات سياسية : كالأسرة والمجتمع والقوانين والنظم والنقابات والحكومة والدولة .... الخ الى آخر تلك المؤسسات الاجتماعية التى تعبر عن « تموضع » الروح ، اعنى أن يتحول نشاط الروح الى « موضوعات » موجودة فى العالم الخارجى .

غير أن هذا النشاط البشرى الروحى الحر يعتمد أساساً على الارادة . وهناك جانبان أساسيان (وهما أيضاً جانبان للحرية ولكل فعل بشرى) جانب الشكل أو الصورة ثم جانب المضمون أو الموضوع : الجانب الأول هو قدرة الفرد على التجرد من أى شرط أو قيد أو وضع ، وهذا هو الوجه الكلى للارادة لأن « الأنا » تتجرد فيه من كل وضع أو تعين ، وسلبها الدائم يؤكد هويتها فى مقابل تنوع حالاتها الجزئية يقول هيجل : « تتضمن الارادة : أولا : عنصر اللا تعين الخالص ،

---

(٢٠) هيجل « أصول فلسفة الحق » ص ١٠٧ من المجلد الأول ترجمة د. امام عبد الفتاح امام – العدد الخامس من المكتبة الهيجلية أصدرته دار التنوير بيروت عام ١٩٨٣ .

أو ذلك الانعكاس الخالص للأنا فى ذاتها ، وهو الانعكاس الذى يعنى غياب كل قيد ، وكل مضمون سواء أكان حاضراً حضوراً مباشراً بالطبيعة أو بواسطة الحاجات والرغبات والدوافع ، أم كان معطى ومحدداً عن طريق الوسائل أياً كان نوعها ، وذلك هو اللاتناهى غير المقيد للتجريد الأول من الارادة ـ جانب واحد ، وهو الجانب الصورى أو الشكلى ، المطلق أو الكلية أو الفكر الخالص للذات .. »(٢١) وذلك هو الجانب الذى يمثل قدرتى التى لا حد لها على التجرد من أية حالة أجد نفسى فيها ، ومن ثم تكون هـذه القدرة بغير مضمون ، أو بغير تعين أو تحديد ، بل انها تعبر عن فرارى من كل مضمون ، ومن كل قيد ، وعندما يعتمد التعين الذاتى للارادة على ذلك فحسب أو عندما تتمسك هى بهذا الجانب على أنه حرية ، فاننا يكون لدينا ، عندئذ ، الحرية السالبة أو الحرية على نحو ما يتصورها « الفهم .... « Verstand » » الذى هو ملكة التجريد عند هيجل ـ انها حرية الفراغ التى تصل الى مرتبة الهوى !

ولكى نفهم هـذه الفكرة على نحو اكثر وضوحاً فاننا نستطيع أن نقول أن لكل فعل بشرى صورة ومضموناً لا يكتمل الا بهما معاً ، فمنهما يتألف الفعل ويكون له وجود ، خذ مثلا بسيطاً للغاية : فعل الكتابة الذى أقوم به الآن ، تجد أن النشـاط الواعى الذى أقوم به فى هـذه اللحظة الحاضرة هو « الصورة ...... « Form » » هو شكل النشاط البشرى أى فعل الكتابة ، لكن المضمون هو ما تقراه أنت أعنى الفكرة التى تعرضها هذه الدراسة ، أو مضمون الرسالة ان كنت اكتب خطاباً ، أو موضوع الكتاب ان كنت أقوم بتأليف كتاب ... الخ ، فذلك هو المضمون أو الجوهر أو موضوع الفعل ومحتواه . ومن ثم فاذا ما قبض الطفل على القلم بجمع يده وراح يخط على الورق ، فانه يقوم بنشاط بغير موضوع

(٢١) « هيجل أصول فلسفة الحق » ـ ص ١٠٩

أعنى بفعل لا مضمون له . وتلك هى صورة الكتابة (ولكنها فى الواقع ليست كتابة حقيقية . ولهذا ترانا لا نطلق عليها هـذا الاسم لأنها ينقصها الشرط الثانى : المضمون) . والارادة بوصفها نشـاطاً بشرياً لا تختلف عن الفعل البشرى بصفة عامة ، فهى أيضاً تتألف من صورة ومضمون ، الصورة هى الارادة فى ذاتها ، وهى تعتمد على أن الانسـان يدرى نفسـه بوصفه مسـتقلا عن غيره من الأشـياء فهو يستطيع أن ينفصل عنها أو يجرد نفسه منها ، بل يستطيع أن يجرد نفسه من كل شىء بحيث لا يرتبط الا بذاته فحسب ، وهـذا هو اللا تعين أى اللا تحديد أو اللا متناهى الذى يتحرر من كل قيد ولا يرتبط الا بنفسه . يقول هيجل : « اننا لا نصف هنا سوى جانب واحد فقط من جوانب الارادة ، وأعنى به القـدرة التى لا حـد لها على التجرد من أية حالة معينـة من حالات الروح قد أجد نفسى فيها أو أضع نفسى فيها ، وهو فرار من كل مضمون شـبيه بالفرار من كل قيد .. »(٢٢) أما الجانب الثانى من الارادة فهو المضمون الذى يجد هـذا اللا تعين ، والذى هو قيد على هـذه القدرة التى لا حـد لها ، أو هو انتقال **الأنا** من هـذه المرحلة الهلامية التى لا تحديد فيها ، الى مرحلة التحديد أو التعين ، فقولى « أنا حر » : هو « قدرة » أى امكانية أو صورة للنشـاط البشرى فحسب ، أما تحقق ذلك النشـاط بالفعل فى العالم الخارجى بحيث يصـبح هناك مضمون لهذا القول فانه يمثل الجانب الثانى وهو ما تنجزه هـذه الحرية فى عالم الواقع . غير أن هـذا الانجاز هو « حـد » للامكانية الهائلة التى كانت عندى من قبل : وهـذا هو المعنى الدقيق للحرية فهى تعنى « التحديد الذاتى » أو التعين الذاتى ، الذى هو اسـتقلال حقيقى

---

(٢٢) هيجل « أصول فلسـفة الحق » ص ١٠٩ ــ ١١٠ من المجلد الأول من طبعة دار التنوير سـالفة الذكر .

للفرد (وللدولة أيضاً) لأن الحرية لا تعنى القدرة على أن تفعل « أى شىء ـ فتلك حرية سلبية ، أى حرية الفراغ أو هى صورة الحرية فحسب لأننى أظل باستمرار فى دائرة الامكان او القدرة ، فأنا قادر على كذا ، وأستطيع أن أفعل كذا ... الخ . لكن هذه « القدرة الهائلة » هذه الامكانية اللامتناهية وهذه « الحرية المطلقة » ينبغى أن تتحول الى شىء جزئى فيكون لها مضمون محدد ، لابد أن تتعين او تتحدد والا انعدم معناها ، وأصبحت مجرد فكرة مجردة فحسب يقول هيجل : « **الأنا هى فى نفس الوقت الانتقال من مرحلة اللاتعين غير المتميز الى** المتمايز والتعين ووضع التحديد لمضمون معين ، ولموضوع ما ، وفضلا عن ذلك فقد يكون هذا المضمون مما تقدمه الطبيعة أو مما تنتجه الروح ... »(٢٣) .

وهكذا تكون الارادة وحدة تجمع بين وجهين مختلفين او لحظتين متباينتين الأول قدرة الفرد على التجرد من أى وضع بحيث يسلبه أو ينفيه ، ويعود بعد نفيه الى التجرد المطلق للأنا الخالص . والثانية هى الفعل الذى يختار فيه الفرد بحرية شرطاً أو وصفاً عينياً يؤكد وجوده بوصفه أنا جزئياً محدداً . ويطلق هيجل على الجانب الأول ـ جانب الصورة اسم « الوجه الكلى للارادة » ـ لأن الأنا يتجرد فيه من كل شىء على نحو كلى ـ أما الجانب الثانى فهو يعترف أن الفرد لا يمكن فى الواقع أن ينفى كل وضع جزئى بل لابد له من اختيار وضع ما يواصل فيه حياته ، وبهذا المعنى يكون فرداً متعيناً أو أنا جزئياً(٢٤) ، وعلى ذلك فان كل فرد ، أو كل وعى ذاتى ، كما يقول هيجل يدرك نفسه على أنه :

---

(٢٣) هيجل « أصول فلسفة الحق » ص ١١١ من المجلد الأول .

(٢٤) المرجع نفسه .

(أ) كلى ، أعنى قدرة على التجرد من كل شيء معين ٠

(ب) وعلى أنه جزئى ذو موضوع معين ومضمون محدد ٠٠(٣) ٠ لكنه ينبهنا الى أن هاتين اللحظتين لا تنفصلان ، لأن انفصالهما لا يعنى سوى التجريد فحسب : « لأن ما هو عينى وحقيقى (وكل ما هو حقيقى عينى) الكلية التى تشمل اليرزئى فى جوفها بوصفه ضدها ٠ غير أن الجزئى بانعكاسه على ذاته ، فانه يتساوى مع الكلى ، وهذا الاتحاد بين الكلى والجزئى هو الذى يؤلف الفردية »(٢٦) فالفرد يجمع فى وجوده بين الكلية والجزئية ، والكلية وحدها عبارة عن تجريد محض ٠

علينا الآن أن ننتقل الى أحداث الثورة الفرنسية لننظر اليها فى ضوء هذا التحليل الفلسفى الذى يقدمه هيجل للنشاط البشرى عموماً ، وللفعل الحر بصفة خاصة لنرى كيف حافظت الثورة ، فى رأى هيجل ، على جانب واحد فقط هو جانب الصورة (صورة الفعل الحر) ولم تنتقل الى مضمونه (بحيث تتحقق الحرية فى مؤسسات اجتماعية ، وقوانين فعلية يريد فيها الفرد ارادته الحرة) وكيف أدى ذلك الى تحولها الى العنف ثم الارهاب ٠ فكيف بدأت الثورة ٠٠٠٠ وكيف سارت أحداثها ؟ !

فى صيف عام ١٧٨٩ عندما اشتدت الأزمة الاقتصادية فى فرنسا ، ووصلت الى ذروتها ، وبعد أن فشل مجلس الأعيان فى حلها ، دعى مجلس الطبقات الى الانعقاد فى مايو فى فرساى على مسافة اثنى عشر ميلا من باريس وكان هذا المجلس يتألف من ١٢٠٠ عضواً نصفهم من طبقة العامة ٠ والصنف الثانى يمثل بالتساوى طبقة الأشراف ورجال الدين (الاكليروس) ولقد بدأ الخلاف يدب بين أعضاء المجلس

---

(٢٥) المرجع نفسه ص ١١٤ ٠

(٢٦) هيجل « أصول فلسفة الحق » ص ١١٤ ٠

منذ بداية اجتماعه حول تنظيم الجلوس ، هل يجلس الأعضاء ، كما كان يحدث فى الماضى فى ثلاث قاعات بحيث تجتمع كل طبقة بمفردها .. ؟ وهل يجرى التصويت على أساس الطبقة أم على أساس أصوات الأفراد ... ؟ ! ثم اقترح الأب سييس **Abbé E. J Sieyés** وهو أسقف متحرر فى ١٠ يونيو ١٧٨٩ أن تقوم الطبقة الثالثة مع من يقف بجوارها من رجال الدين والأشراف بتكوين مجلس تشريعى يمثل البلاد ويطلق عليه اسم « الجمعية الوطنية » وتمت الموافقة على الاقتراح فى ١٧ يونيو بأغلبية ساحقة (٣٩١ صوتاً ضد ٩٠ صوتاً !) واعتبر هذا القرار صورة مصغرة من الثورة الفرنسية ، فهاهم أولاد العامة يزعمون لأنفسهم حق التصرف باسم الأمة رغم أنف الملك والطبقتين صاحبتى الامتيازات الكبرى ! فهل تراهم ينتقلون حقاً من الأقوال الى الأفعال ؟ ! هذا سؤال يسأله مؤرخ معاصر(٢٧) . وهو نفس السؤال الذى سأله هيجل من قبل مستخدماً مصطلحاته الفلسفية الخاصة : هل يمكن ان ينتقلوا من صورة الحرية هذه الى مضمونها ؟ صحيح أن الصحف اخذت فى الظهور ، وكانت الصحافة السياسية ظاهرة جديدة لم تعرفها فرنسا ، وأصبح لها نفوذ عظيم ، وتأليف الأندية لمناقشة المسائل المطروحة على الجمعية الوطنية والتأثير على الرأى العام منها :

(أ) نادى اليعاقبة .. **Jacobins** ـ وقد تشكل هذا النادى فى الأصل من عدد من أعضاء الجمعية اعتادوا أن يلتقوا فى دير للآباء اليعاقبة يقع على مقربة من دار الجمعية الوطنية فاطلق عليهم الاسم نسبة الى الدير المذكور .

---

(٢٧) قارن مثلا ح جرانت فى كتابه « أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين » ص ٦٩ ترجمة بهاء فهمى ومراجعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب بالقاهرة .

(ب) نادى الكورديليه الذى يمثل الطبقة العامة أو الطبقة الدنيا وكان يلقب نفسه باسم « صديق الشعب .. L'ami du peuple » ويصـدر صحيفة بهذا الاسم .

(جـ) نادى الجيروند Jirondins » وكان روأده يمثلون فى البـداية ، التطرف ، اذ كانوا يميلون نحو النظـام الجمهورى ، أما هدفهم الأساسى فقد كان تنشيط الصناعة والتجارة . ومع اتجاه الثورة نحو التطرف أخذ هؤلاء فى الابتعاد عنهـا حتى أننا نراهم يدافعون عن الملك قبل اعدامه ، ثم يسـعون الى التفاهم مع الأرستقراطية فى محاولة للحفاظ على مصالحهم المحدودة مما أدى الى اعدام الكثيرين منهم وعلى رأسهم « مدام رولان » الزعيمة وزوجة النائب رولان .

أما الجمعية الوطنية فقد تحولت الى جمعية تأسيسية أخذت على عاتقها وضع دسـتور للبلاد ، والانتقال من « الصورة » الى « المضمون » أعنى تحقيق الحرية بالفعل ـ فاستقر الرأى فى البداية على وضع اعلان لحقوق الانسان يكون أساساً للدسـتور كله . وقد تمت الموافقة على هـذا الاعلان فى أول اغسطس ١٧٨٩ جاء فى أهم فقراته :

« أن ممثلى الشـعب الفرنسى المجتمعين فى شـكل جمعية وطنية اذ يؤمنون بأن تجاهل حقوق الانسـان واغفالها وازدرائها ، انما هى الأسـباب الوحيدة للنكبات العـامة ، وفساد الحكومات ـ قد عقدوا العزم على أن يسـجلوا فى اعلان جليل حقوق الانسـان الطبيعية المقدسة التى لا يمكن التنازل عنها ، حتى يكون فى هـذا الاعلان المـاثل على الدوام أمام جميع أعضاء الهيئة الاجتماعية تذكرة مستمرة لهم بحقوقهم وواجباتهم ... ومن ثم فان الجمعيـة الوطنية تعترف وتعلن الحقوق التالية للانسـان والمواطن :

(١) يولد الناس احراراً ومتساوين فى الحقوق ويظلون كذلك ، والامتيازات الاجتماعية لا تقدم الا كمنفعة عامة ٠

(٢) هدف كل تشكيل سياسى هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية : حق الحرية ، والملكية ، والأمن ، ومقاومة الظلم ٠

(٣) الأمة مصدر السلطات الكاملة ، ولا يجوز لأى جماعة أو فرد ممارسة السلطة ما لم تكن مستمدة من الأمة ٠

(٤) تتمثل الحرية فى السماح للفرد بأن يفعل كل ما لا يضر الآخرين ٠

(٦) القانون هو التعبير عن الارادة العامة ، ولجميع المواطنين حق الاشتراك فى وضعه بأشخاصهم أو عن طريق ممثليهم ٠

(١٠) لا يجوز أن يضار أى شخص بسبب آرائه ، ولو كانت آراء دينية على شريطة ألا ينطوى الاعراب عنها الاخلال بالنظام العام الذى يقيمه القانون ٠

(١١) حرية تبادل الأفكار والآراء هى من أغلى حقوق الانسان ٠

(١٧) لا يجوز حرمان أى فرد من الملكية التى هى حق مقدس لا يمس الا اذا اقتضت ذلك بجلاء ضرورة عامة ينص عليها القانون ٠٠٠

* * *

فى استطاعتنا أن نلاحظ هنا عدة امور قبل أن نواصل الحديث عن احداث الثورة وموقف هيجل منها :

الملاحظة الأولى : أن الاصلاح السياسى والاجتماعى لابد أن يبدأ ،

فى رأى هيجل ، من أرض الواقع بحيث يحلل ما هو قائم ويستخرج منه « العناصر العقلية » فيدعمها والعناصر اللاعقلية فيعمل على نقدها وتفنيدها وإصلاحها : أن الانسان يستطيع أن ينقد الدولة التى يعيش فيها لكنه لا يمكن أبداً أن يصل الى رفضها تماماً او نبذها كلية .

الملاحظة الثانية : يترتب على ذلك أن نقول مع هيجل « أنه يمكن أن يطرح سؤال عن طيب خاطر هو : من الذى ينبغى عليه أن يقوم بوضع الدستور .. ؟ ! ان هذا السؤال قد يبدو واضحاً وبسيطاً ، لكنا لو تمعنا فيه بدقة لوجدناه يغير معنى على الاطلاق ، لأنه يفترض سلفاً أنه ليس ثمة دساتير قبل ذلك . بل مجرد تجمع لذرات من الأفراد .. ان هذا السؤال اذا ما سلم بوجود دستور ما سابق عليه ، فان طرحه سوف يكون حول الكيفية التى يمكن أن يعدل بها الدستور لا أن يوضع ، وافتراض وجود الدستور يعنى بذاته أن التعديل لا يمكن أن يحدث الا دستوريا .. »(٢٨) .

الملاحظة الثالثة : هى أننا لا نزال حتى الآن فى جانب الصورة التى تحدث عنها هيجل من قبل ، لأن هذه المبادىء التى تم اعلانها لا تزال مجردة تماماً ، فهى باعتراف الجمعية التى وضعتها نفسها ليست سوى « تذكرة أمام الهيئة الاجتماعية تذكرها بحقوق وواجبات المواطنين » ـ اى انها لم تتحقق بالفعل بعد ، فضلا عن أننا نلاحظ أن كثيراً من مبادئها ستظل فى حيز الامكان دون أن تتحول الى واقع متحقق بالفعل على نحو ما سنرى بعد قليل ، ولقد لاحظ المؤرخون بحق : « ان الفقرة السادسة تتضمن مبدأ الاقتراح العام ، ولم تكن الجمعية الوطنية فى

(28) Hegel : The Philosophy of Right p. 178 Eng. Trans by T - M - Knox .

تطورها الأخير فى موقف يسمح لها بتطبيق هذا المبدأ ، فأتاح هذا المبدأ ، فأتاح هذا التفاوت بين المبادىء والتطبيق فرصة للهجوم ، أسرع الى اغتنامها الثوريون المتأخرون »(٢٩) ٠ وفى ٤ أغسطس عام ١٧٨٩ ، وسط مظاهر الانفعال والحماسة البالغة أعلن الغاء « الاقطاع » وساهم أبناء الطبقات المتميزة أنفسهم فى تحطيم الأساس القانونى لمركزهم ، على أنه كان من العسير على المرء أن يحدد بالضبط مضمون هذا الالغاء بعد أن تم اقراره ٠ وان كانت دلالته أن يد الجمعية قد أصبحت مطلقة تماماً فى العمل على اعادة تشييد البناء السياسى ، وأن الميدان مفتوح أمامها لا تحده حدود ٠٠ »(٣٠) ويوافق هيجل تماماً على ما صدر من قوانين تعبر عما يسميه بالحق العقلى « فالى هذه المقولة تنتمى حرية الملكية والحرية الشخصية ٠ أما الآثار المتبقية لحالة العبودية التى خلفتها علاقات عصر الاقطاع فهى كلها انحراف عن هذه المقولة ، وقل مثل ذلك فى القوانين المحلية كلها التى كانت موروثة من قانون الاقطاع كالأعشار (ضريبة الكنيسة) وغيرها من الرسوم التى تم الغاؤها ٠ وقل مثل ذلك فى حرية التجارة الحرة ، واتاحة الفرصة أمام الأفراد لاستغلال قدراتهم بغير قيود ٠ وشغل المناصب المختلفة فى الدولة ٠ وذلك كله تعبير عن مجمل العناصر الحقيقية للحرية التى لا تقوم على أساس الوجدان أو العاطفة (بل على أساس العقل) لأن العاطفة ربما تسمح حتى باستمرار الرق والقنانة ٠٠ »(٣١) ٠ هذا كله يمتدحه هيجل لكنه يرى أنه كان لابد من اتاحة الفرصة للحكومة لتنفيذ ذلك كله ! « لأن الفاعل الذى يضفى على القوانين طابعها العملى التنفيذى هو الحكومة بصفة عامة ٠ فالحكومة هى أساساً ، المنفذ الرسمى للقوانين

---

(٢٩) « أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين » ص ٧٨ — ٧٠

(٣٠) المرجع نفسه ص ٨٠

(31) **Hegel's Philosophy of History p. 467**

وهى التى تضفى عليها سلطاتها وقوتها .. اذ لا يكفى أن يسمح للناس بممارسة التجارة بل لابد أن تكون ذا فائدة بالنسبة لهم ولا يكفى أن يسمح لهم باستخدام قدراتهم ، بل لابد أن يجدوا كذلك الفرصة المواتية لاستخدامها فى غرض ما ، وهكذا نجد أن الدولة تتضمن مجموعة من المبادىء المجردة والتطبيق العملى لها ... »(٣٢) .

* * *

وفى ١٤ سبتمبر ١٧٩١ تم وضع الدستور وقبله الملك ، وبدا أن الثورة قد انتهت ، فقد تم اقرار دستور مشابه لدستور بريطانيا العظمى دون ما عنف كبير وخسائر فادحة فى الأرواح ، وتنبأ الكثيرون من المراقبين الأجانب لفرنسا بحياة دستورية هادئة .. فهل تحققت هذه النبوءة واستقرت الأوضاع فى فرنسا ؟ ! الواقع أن المبادىء التى أقرتها الثورة الفرنسية ، وكذلك تصرفات الأفراد القائمين عليها والمشاركين فيها ظلت فى دائرة « التجريد » ، أو قل انها اتخذت « صورة » الفعل وليس « مضمونة » . واذا تجرد الفرد من كل حالة جزئية ، وانسحب الى مجال الارادة الخالصة للأنا فسوف تظل ارادته ترفض على الدوام جميع الأشكال الاجتماعية والسياسية القائمة ، بل والتى تضعها هذه الارادة نفسها لأنها ستحد فى النهاية منها ، وهكذا يصل الى ما يشبه الحرية والمساواة المجردتين اللتين مجدتهما الثورة الفرنسية ! يقول هيجل : « فى البداية برزت مبادىء فلسفية مجردة تماماً ... أول صورة دستورية للحكومة فى فرنسا كانت حكومة اعترفت بالنظام الملكى . واستمر الملك على رأس الدولة ، وكان عليه بمعاونة وزرائه ادارة السلطة التنفيذية . وكان على الهيئة التشريعية ، من ناحية أخرى ، سن القوانين . غير أن هذا الدستور كان يتضمن منذ البداية تناقضاً داخلياً : ذلك لأن

(32) Ibid , p - 468

السلطة التشريعية امتصت سلطة الادارة التنفيذية كلها : فكانت هى التى تبحث الميزانية وتناقش أمور الحرب والسلام ، وتجند القوات المسلحة .. والى غير ذلك من سلطات كانت فى يد المجلس التشريعى .. وفضلا عن ذلك فان هذا الدستور أفسده وجود انعدام مطلق للثقة ، فالأسرة الحاكمة قد وضعت تحت الاشتباه لأنها فقدت السلطة التى كانت تتمتع بها من قبل ، ورفض القساوسة القسم . ولا يمكن للحكومة أو للدستور أن يتأكد على هذا الأساس وكانت النتيجة هى انهيارهما معاً .. »(٣٣) .

لم تستقر الأوضاع فى فرنسا ، اذن ، لأن الحرية والمساواة والاخاء لم توضع موضع التنفيذ ، بل ظلت فى دائرة المجردات ، مجرد شعارات مرفوعة بغير مضمون ! فبعد أن تم وضع الدستور وقبله الملك لم يعمل به ، بل لم يمض عامان على انتخاب الجمعية التشريعية حتى أصبحت عاجزة تماماً عن السيطرة على الموقف ، لأن قادة الرأى العام الحقيقيين لم يكونوا بين أعضائها ، فراحت تنظر الى تطور الحوادث بعين القلق والعجز . ثم تألفت لجنة للثورة من نفر من اليعاقبة برياسة دانتون **Danton** ، ثم تقرر ايقاف الملك عن ممارسة وظائفة ، وتشكيل جمعية جديدة تسمى « المؤتمر الوطنى » بواسطة الاقتراع العام لجميع البالغين من الرجال فى أقرب فرصة ! غير أن المجلس البلدى الجديد الذى تشكل حديثاً اكتسب أهمية تفوق الجمعية التشريعية التى هجرها معظم أعضائها ، ولم يبق لها فى الوجود الا أيام معدودة . وكان روبسبير .. **Robespierre** صاحب النفوذ الأكبر فى المجلس البلدى ، قد طالب باحالة التحقيق فى الجرائم التى ترتكب ضد الدولة الى هذا المجلس ، ولم يكن ثمة مفر من اجابة مطلبه ، كما عينت أيضا

---

(33) Hegel's Philos - of Hisory p 469

الرئيســية فيها !

« لجنة الاشراف » وهى لجنة تنفيذية خاصــة كان « مارا » الشــخصية

ولك أن تلاحظ عــدد اللجان والهيئات والمجالس التى أنشــأتها الثورة فى ســنوات قليلة ، فضلا عن القوانين والبيانات والشعارات التى رفعت ، دون أن يوضع ذلك كله موضع التنفيذ بل ظلت كلها مبادىء « وأفكار » مجردة ومثلا عليا وأمانى يتطلع اليها الناس دون أن تتحول الى أمور واقعية بالفعل ، واذا تساءلنا عن السبب لكان الجواب واضحاً : ان المبادىء والأفكار عندما تتحول الى واقع فعلى سوف تكون « قيداً » للارادة لأنها سوف تصبح « تعيناً » للحرية ومضموناً لها ! وبمعنى آخر لو أن الاعلان الذى جاء فى وثيقة حقوق الانسان كما اعلنتها الجمعية الوطنية اخذ طريقه الى حيز التنفيذ لحد هو نفسه من تصرفات أعضاء الجمعية ولأصبح قيداً على الجمعية الوطنية نفســها ، لان مضمون الفعل يحد من صورته ـ والأعضــاء يريدون الصورة وحدها ، الارادة المطلقة التى لا تتعين ، **لأنهــا لو تعينت لمــا كانت مطلقــة ، وهــذا الجانب** الصورى فى فعل الارادة هو ما يســميه هيجل « بالحرية الســلبية » التى تدمر كل شىء يقف فى طريقها ، حتى النظم والمؤسسات التى تقيمها هى نفســها لا تلبث أن تهدمها لأنها لا تريد شــيئاً يحد من حريتها(٣٤) .

---

(٣٤) هــذا واضح أيضاً فى التنظيمات السياسية الكثيرة التى أقامتها فى مصر ثورة ١٩٥٢ فهناك : هيئــة التحرير ، ثم الاتحاد القومى ، ثم الاتحاد الاشــتراكى ، وبعده الاتحاد الاشــتراكى المعدل ... الخ فضلا عن البيانات والاعلان بحقوق « الانســان المصرى » الذى لم يتحقق قط من « فلســفة الثورة » الى « الميثاق » الى « بيان ٣٠ مارس » ودقت ســاعة العمل الثورى ... الخ أضف الى ذلك كله مجمــوعة

يقول هيجل عن هـذا الجانب الصورى السلبى من الارادة : « عندما ينظر التفكير التمثلى الى هـذا الجانب بذاته على أنه حرية ويتمسك به ، فاننا يكون لدينا عندئذ الحرية السـلبية • أو الحرية على نحو ما يتصورها الفهم ، انها حرية الفراغ التى تصل الى مرتبة الهوى وتتخذ شكلا واقعياً فى العالم ، فى حين أنها اذا ما ظلت نظرية فانها تتخذ شكلا دينياً ، كما هى الحال فى تعصب الهنود للتأمل الخالص • لكنها عندما تتحول الى الممارسة والتطبيق الفعلى ، فانها تتخذ فى الدين والسياسة شكل التعصب للهدم والتدمير : هدم كل النظم الاجتماعية القائمة ، وابعاد الأفراد الذين يشـتبه فى ميولهم لنظام اجتماعى آخر ، وتدمير كل منظمة تحاول أن تظهر من جديد من بين الأطلال • ان هـذه الارادة السـلبية لا تشـعر بوجودها الا وهى تدمر شـيئاً ما ، وهى تتخيل ، بالطبع ، أنها تريد حالة وضعية ايجابية للأمور كحالة المسـاواة الشـاملة لكنها لا تريد فى الواقع ان يتحقق ذلك بطريقة وضعية ايجابية • والسبب : ان هـذا الوجود الواقعى يؤدى فى الحال الى لون ما من الوان النظام ، وتحديد خاص للأفراد والمؤسسات فى حين ان الوعى الذاتى لهـذه

لا بأس بهـا من الدسـاتير • ! ويمكن أن يقـال ذلك نفسـه على عهـد السـادات : الاتحاد الاشـتراكى السـاداتى ، والمنابر وأحزاب الوسط ••• الخ الى الأحزاب القوميـة •• الى مجلس الشـورى ••• الخ .. لكن شـيئاً من ذلك لا يكون له « وجود حقيقى » أعنى أنه لا يمارس الدور الذى جاء من أجله ، بحيث تتحول « صورته » الى مضمون واقعى ، والتفسـير بسيط للغاية : ان أياً من هـذه المجالس أو الهيئـات لو أنه مارس دوره الحقيقى لكان « قيداً » على حرية الحـاكم وقراراته ، وارادته التى يريد لها أن تكون « مطلقة » ، وهكذا تتحول الى ارادة تدمير فتعود هى نفسـها الى الغاء ما أقامته فى الواقع !

الحرية السلبية لا يتقدم على وجه الدقة الا برفضه لهذا التحديد والتخصيص . وبالتالى فان ما تتجه الحرية السلبية الى ارادته لا يمكن ان يكون شيئاً فى ذاته على الاطلاق بل يكون فكرة مجردة . ولا يمكن لهذه الفكرة أن تحقق سوى ضراوة التدمير .. »(٣٥) . فتقوم بتدمير جميع المؤسسات التى وضعتها هى نفسها لأنها تشكل قيداً على حريتها المطلقة . لكن ذلك لا يعنى انه ليس ثمة « قوانين » ، ان القوانين التى تحكم هى « القوانين الأخلاقيــة » التى هى بطبيعتها « ذاتية » : « فالقوى المسيطرة الآن هى المبادىء المجردة للحرية على نحو ما توجد فى حدود الارادة الذاتية أعنى الفضيلة . فالفضيلة هى الآن التى تقود الحكومة فى اتجاه مضاد للكثرة الغالبة الذين كان فسادهم ، وتعلقهم بالمصالح القديمة أو الحرية التى انحطت باساءة استعمالها ... قد جعلهم غير جديرين بالثقة ، غير مخلصين للفضيلة . والفضيلة هنا هى مبدأ مجرد بسيط يشطر المواطنين شطرين أعنى الى طبقتين فحسب : طبقة المواطنين الذين يتخذون موقفاً ودياً ، وطبقة المواطنين الذين يتخذون موقفاً عدائياً .. »(٢) وهكذا يصل هيجل الى أن القوانين المسيطرة سوف تكون اولا : قانون الاقتناع ـ وهو طبعاً موقف ذاتى تماما « والاقتناع لا يمكن ان نتعرف عليه ولا أن نحكم عليه إلا من خلال الاقتناع » ! (٣) وثانيا : قانون الاشتباه ، لأن « الثقة » ، وغيرها من الأفكار الأخلاقية ، اذا ما كانت هى المسيطرة فى علاقة الحاكم بالمحكوم فانها سرعان ما تتحول الى « عدم ثقة » . ولهذا فانه اذا كانت المفاهيم الأخلاقية

---

(٣٥) هيجل « اصول فلسفة الحق » ص ١١٠ ـ ١١١ من المجلد الأول ترجمة د. امام عبد الفتاح امام ـ العدد الخامس من المكتبة الهيجلية اصدرته دار التنوير بيروت عام ١٩٨٣ .

تكثر فى حالة الثورات فنجدهم يتحدثون عن « الثقة » و « الطهارة الثورية » و « والنقاء الثورى » و « العنيف .. » الخ فان هـذه المفاهيم كلها تتحول بسرعة وبساطة شـديدة الى ضدها ، ولهذا كثيراً ما نجـد « الوزراء » والقائمين على الحكم بين ليلة وضحاها فى السـجون والمعتقلات ... الخ . اما فى حالة الثورة الفرنسـية فقد كانوا يحالون الى « الجيلوتين » : « ساد الاشـتباه وتحول الى سـلطة مرعبة بعثت بالملك الى المقصلة .. وأقام روبسـبير من الفضيلة مبدأ أسمى ، ويمكن أن نقول ان الفضيلة كانت عنده مسـألة جادة ، الفضيلة والرعب هما النظام اليومى ، لأن الفضيلة الذاتية التى يقوم حكمها على الأقتناع تجلب معها الطغيان ، وتمارس سـلطتها بدون شكليات تشريعية ... »(٣٦) .

ولهذا فاننا نجد « الشك والارتياب » يسودان رغم وجود الدسـتور والجمعيات النيابية والحكومة ! فلم تكد تمضى ستة أشـهر على وضع الدسـتور الذى وضع فى ١٤ سـبتمبر ١٧٩١ ـ حتى طلب دانتون Danton فى ٢٨ مارس بوصفه وزيراً للعدل ، أعطائه سـلطة « تفتيش البيوت » فى باريس بحثاً عن أعداء الثورة . وهكذا تم القبض على آلاف من المشـبوهين خلال الأيام الثلاثة التالية ، وفاضت سـجون المدينة برجال من مختلف الانواع بعضهم برىء ، وبعضهم من المتآمرين على اعادة الملكية ، وكلهم من المشـتبه فى ارتكابهم جريمة مناوأة لحكم اليعاقبة . وكان موقف اليعاقبة عصبياً كما جاء فى احـدى خطب دانتون الشـهيرة : « أن الثورة بين نارين عدو على الحدود ، وعدو فى الداخل ، فلابد من ارهاب العدو ان أريد للثورة الاسـتمرار والبقاء » ... وفى يوم الأحـد ٢ سـبتمبر بدأت عملية ارهاب للعدو فى الداخل فشكلت محكمة ارتجالية فى سـجون باريس ، وكان المسجونون يمثلون امامها

---

(36) Ibid , p. 471

جماعات وليس فرادى في اغلب الاحوال ، فيستجوبون على عجل ، ولا ريب ان بعض الجهود قد بذلت للتميز بين اعداء الثورة الحقيقيين ، فكان المسجونون يعادون الى السجن اذا رؤى انهم ابرياء ، ويصدر الأمر بنقلهم الى سجن آخر اذا اعتبروا مذنبين ، وكان أمر النقل هذا يعنى حكماً بالأعدام ، فيلقى الصادر بشأنهم هذا الأمر فى الطريق حيث يجهز عليهم أناس هيئوا لهذا العمل • وقد قتل بهذه الطريقة مئات فى باريس خلال يوم ٢ سبتمبر واليومين التاليين ، ومن المستحيل أن تحصى عددهم بالضبط • وقد دارت وسوف تدور مناقشات طويلة حول منشأ مذابح سبتمبر والمسئولين عنها !

٥ ـ خاتمة حول مسئولية « روسو » !

يمكن القول بأن عهد الارهاب الذى بدأ ، فى الواقع ، فى اغسطس ١٧٩٢ قد بلغ ذروته بسقوط « الجوند » عندما استولت اقلية صغيرة حازمة على مقاليد الحكم ، وضربت بالأشكال الدستورية التى وضعت من قبل ، عرض الحائط ! ولقد عرف التاريخ عهود ارهاب كثيرة ، بمعنى انه شاهد الكثير من الحكومات التى احتفظت بسلطتها عن طريق العنف ، واشاعة الخوف فى نفوس معارضيها ، الا انه من دواعى السخرية ان اليعاقبة ظلوا ، رغم قيام حكمهم على محكمة الثورة والمقصلة ، يمارسون السلطة ، طوال الوقت ، باسم الديمقراطية وباسم سيادة الشعب ! لأن الأفكار والمبادىء والقوانين ••• ظلت في دائرة المجردات يقول هيجل عن هذا العهد : « ابان عهد الارهاب فى الثورة الفرنسية قيل ان كل الفروق والاختلاف فى المواهب والسلطة قد ألغيت • ولقد كانت هذه الفترة : فترة غليان وجيشان وكراهية حادة لكل ما هو جزئى • ومادام التعصب يريد التجريد فقط ، ولا يريد شيئاً متميزاً ، فانه ينتج من ذلك انه عندما تظهر التميزات ، فسوف يجد انها تتضارب

وقوة مع اللاتعين عنده وهو لهذا يلغيها ، ولهذا السبب نجد أن الثوار الفرنسيين حطموا من جديد المؤسسات والتنظيمات التي أقاموها هم أنفسهم ، مادام التنظيم أيا كان نوعه يتضارب بقوة مع الوعى الذاتى المجرد بالمساواة ...»(٣٧) .

اذا تساءلنا فى النهاية لماذا تحولت الثورة الى ارهاب ؟ ! ولماذا بقيت « المبادىء » و « الأفكار » الرائعة التى نادت بها الثورة مجرد شعارات لا تتحقق ؟ ! فان هيجل ــ وهو يجيب عن هذه الأسئلة ــ يلقى بجانب كبير من المسئولية على عاتق « روسو » وفكرته عن الارادة العامة ، رغم اعترافه باسهام الفيلسوف الفرنسى ، المتميز فى تطوير التصورات السياسية لا سيما مفهوم الدولة ــ يقول هيجل : « أن ميزة مساهمة روسو في البحث عن تصور للدولة هى انه يذهب الى أن الارادة هى المبدأ الذى تقوم عليه الدولة فقدم مبدأ يمثل الفكر من حيث شكله ومضمونه فى آن معاً ، مبدأ لا يزى نفسه ، فى الواقع ، كالغريزة الاجتماعية مثلا ، أو السلطة الالهية ، أو غير ذلك مما يشتمل على شكل الفكر فحسب ! لكن ، لسوء الطالع ، فان روسو ، كما فعل فشته فيما بعد ، نظر الى الارادة فى صورة محددة فقط بوصفها ارادة فردية ، ونظر الى الارادة الكلية لا على أنها عنصر عقلى (على نحو مطلق) فى الارادة ، بل فقط كارادة « عامة » تصدر عن هذه الارادة الفردية كما تصدر عن ارادة واعية . وكانت النتيجة أنه رد وحدة الأفراد فى الدولة الى تعاقد فأقام الدولة على أساس « العقد الاجتماعى » ومن ثم ردها الى شىء يقوم على ارادتهم التعسفية ، على رأيهم الظنى ، ورضاهم الواضح الصادر عن الهوى . ويذهب الاستدلال المجرد الى

---

(٣٧) هيجل : « أصول فلسفة الحق » ص ٢٧٠ ــ ٢٧١ .

استنتاج النتائج المنطقية التى تدمر المبدأ المقدس الخالص الذى تقوم عليه الدولة ، كما تدمر خلالها سلطاتها المطلقة !

ولهذا السبب ، فحينما سادت وتحكمت هذه النتائج المجردة ، استطاعت لأول مرة فى التاريخ البشرى ان تقدم المشهد الهائل لتقويض دستور دولة عظيمة قائمة بالفعل ، واعادة بنائها الكامل من الأساس اعنى من البداية .. **ab initio** على أساس الفكر الخالص وحده ، بعد تدمير جميع الأنظمة القائمة ، وكل ما هو معطى . وكانت ارادة الذين اعادوا تأسيسها تستهدف ان تضفى عليها ما زعموا انه أساسى يتفق مع العقل اتفاقاً تاماً ولكنهم لم يستخدموا فى ذلك سوى تجريدات خالصة . فغاب البناء المتين عنى هذه « الفكرة » فأدى ذلك الى انهيار التجربة بمنتهى الفظاعة والارهاب .. »(٣٨) .

---

(38) **Hegel's philosophy of Right p. 156 - 157 Eng . Trans . by T. ,. Knox**

هيجـل ... والمجتمع البرجـوازى

« هيجل ... والمجتمع البرجوازي »

تمهيـــد :

هدفنا من هـذه الدراسة القاء الضوء على مفهوم البرجوازية Bourgeoisie بصفة عامة وتحليل هيجل للمجتمع البرجوازي (أو المجتمع المدني)(١) ، بصفة خاصة .

والحق أن هـذا المصطلح كثر ترديده على أقلام الكتاب والسنة الناس بسواء فأصبحنا نسمع عن « الرجل البرجوازي » ، والفكر البرجوازي ، والمجتمع البرجوازي .. الخ . فما هي البرجوازية ؟ وكيف يفهمها هيجل قبل ظهور المصطلح عند ماركس ؟ ثم كيف ومتى نشأت هـذه الكلمة ؟ أهي تمثل حقبة تاريخية معينة ولى عهدها أم انها مجموعة من الخصائص يمكن أن توصف بها طبقة ما في أي مجتمع وفي أي عصر بل يمكن حتى أن تعبر عن نظام اجتماعي شامل ؟

---

(١) على الرغم من أن هيجل يحلل خصائص المجتمع البرجوازي في قسم خاص من « فلسفة الحق » يطلق عليه اسم « المجتمع المدني » وهي تسمية استخدمها ماركس أيضاً فيما بعد لا سيما في مؤلفاته الأولى — فان هيجل يستخدم أيضاً مصطلح المجتمع البرجوازي منـذ الكتابات السياسية الأولى : انظر مقاله « دستور المانيا » ص ١٨٩ — ١٩٠ ، وص ٢٠٢ — ٢٠٤ الخ . وفي محاضر اجتماع مجلس ولايات فورتمبرج ص ٢٩٢ و « لائحة الاصلاح النيابي في انجلترا » ص ٣١٤ في الكتابات السياسة المبكرة التي ترجمها نوكس وقدم لها بلزنسكي

وقارن أيضا « أصول فلسفة الحق » ص ١٢٤ وص ١٢٧ من ترجمة نوكس الانجليزية .

Hegel's Political Writings Eng . Trans. by T · M · Knox Oxford 196

الواقع ان الكلمة فرنسية الأصل ...... ـ **Bourgeoisie** وهى مشتقة من الكلمة الفرنسية التى تعنى مدينة ...... **Bourg** واغلب الظن ان هذه الكلمة الأخيرة مشتقة فى الأصل من الكلمة العربية « برج » وكانت تطلق على الأبراج التى تقام فى القلاع والحصون والقصور الضخمة لاسيما فى المدن ، ومن هنا استخدمتها اللغات الأوربية عندما بدأ الناس يزحفون من القرى والريف تاركين فلاحة الأرض لطبقة خاصة هم الأقنان (أو رقيق الأرض فى عصور الاقطاع) ، ومتجهين الى المدن بحثاً عن حرفة أخرى(٢) . وربما دل الأصل الفرنسى لهذه الكلمة على ان المجتمع الفرنسى كان اسبق من غيره من المجتمعات الأوربية فى المرور بظاهرة التحول هذه وظهور مجتمع المدينة او هذه الطبقة الجديدة التى تعيش فى المدن ، ولهذا أطلق الفرنسيون على الرجل الذى يعيش فى المدينة كلمة « برجوازى **Bourgeois** » اى ساكن المدينة فى مقابل الفلاح الذى يسكن الريف . ثم اطلق الفرنسيون كلمة برجوازية **Bourgeoisie** على سكان المدن الفرنسية الذين تحولوا الى

---

(٢) شكل هؤلاء المغامرون طبقة جديدة استخدمت الكثير من الأيدى العاملة فظهر بينهما اول الوان الصراع الذى نشب بين صاحب العمل والعمال ، لكن ذلك لم يكن سوى مضمون اجتماعى جزئى فحسب لمصطلح البرجوازية . ولقد اشار « موليير » فى مسرحيته الشهيرة « البرجوازى المهذب » الى استخدام آخر لهذا المصطلح يفرق فيه بين الطبقة المتوسطة وطبقة النبلاء . وكان هذا هو الصراع الثانى الذى شكل هذا المصطلح ، ولقد ادى ظهور البرجوازية الى تدمير النظام الثقافى والاقتصادى القديم وظهور نظام ثقافى واقتصادى جديد .

The Encyclopaedia of The Social Sciences Vol. I. The Macmillan Company.

جماعة ميسورة الحال تملك وسائل الانتاج ولا تمارس حرفة يدوية معينة ثم عممت فيها بعد واصبحت الكلمة تطلق على الطبقة الوسطى فى البلاد التى لا يعمل افرادها بأيديهم خلافاً للعامل أو الفلاح . وانصرفت بصفة عامة الى المتوسطين من التجار ، والملاك ، وأصحاب الأسهم والسندات ، وأصحاب المهن الحرة ، من المحامين والأطباء والمهندسين .. والغريب أن هذه الطبقة الجديدة النامية (٣) والتى نزحت أساساً من الريف واستقرت فى المدن لتتولى زمام التجارة وليقوم ابناؤها بجميع المهن الحرة ـ الغريب أن هذه الطبقة لعبت دوراً خطيراً فى القضاء على النظام الاقطاعى (فهى لم تكن من طبقة الاقطاع وانما كانت على العكس من الطبقة المحرومة التى هربت من نير الاقطاع فى الريف للاستقرار فى المدن) كما أنها لعبت دوراً حاسماً أيضاً ، نظراً لأنها نالت قسطاً من التعليم فى الأعم الأغلب ، لا بأس به ، فى مقاومة فكرة الحق الالهى للملوك الذى ظل سائدا فى أوربا طوال العصر الوسيط . وفضلا عن ذلك كله فانها هى التى عملت على ارساء قواعد الحكم فى المجتمع الأوربى على اساس من الدستور وسيادة القانون ، والمساواة بين أفراد المجتمع جميعاً واقامة النظام النيابى . ولهذا فاننا نستطيع ان نقول ان الثورة الفرنسية وما صاحبها من اعلان لحقوق الانسان كانت مظهراً لقوة هذه الطبقة وتعبيرا عن آمالها وقيمها .

ومن هنا نجد ماركس . K Mar يقول فى البيان الشيوعى :

« لقد لعبت البرجوازية من الناحية التاريخية دوراً ثورياً بارزاً ..

---

(٣) اصبحت البرجوازية قوة سياسية لها خشيتها من خلال نمو المدن ثم أصبحت هى نفسها احدى الأسباب الرئيسية فى انهيار الامبراطورية الألمانية ـ قارن هيجل « الكتابات السياسية » ص ١٩٠ ـ ١٩١ ترجمة نوكس السالفة الذكر .

ولا يمكن للبرجوازية أن توجد دون أن تعمد الى تطوير أدوات الإنتاج .. ومعها علاقات المجتمع كلهـا ولقد كانت الثورة التى احدثتها البرجوازية بصفة خاصة هى الثورة الفرنسية حيث أنهت الامتيازات التى تقوم على المولد ، وأكدت مبادىء الفردية ... Indnvidualism والعمل بوصفها معيار المكانة والوضع فى المجتمع ...»(٤) .

لكن على الرغم من أن البرجوازية قامت بدور مجيد فى اسقاط النظم التى سادت قبلها فانها هى نفسها كانت تحمل قدراً غير قليل من الفساد والمبادىء السياسية السيئة وربما كان أهمها الإعتماد على الفرد واشباع حاجاته وأهوائه على حساب المجموع وبغض النظر عن المجتمع ككل . ولهـذا فقد اكتسبت كلمة (البرجوازية) دلالة خاصة لدى أصحاب الفكر الاشتراكى ولا سيما الماركسيين الذين يستخدمون هذه الكلمة ليقصدوا بها الطبقة الرأسمالية التى تملك أدوات الانتاج تمييزاً لها عن طبقة البروليتاريا ... Proletariat (وهى مشتقة من كلمة لاتينية هى ... Proletarius التى تعنى ذلك الشخص الذى ينتمى الى أدنى طبقات المجتمع ، ثم تطورت فى العصر الحديث لتعنى الكادحة أو العاملة) . وتنصرف كلمة البروليتاريا عند الماركسيين الى طبقة العمال الذين لا يملكون شيئاً ويعتمدون على كدهم فى كسب عيشهم .

ولهـذا فقد ذهب الماركسيون الى القول بأن النظام الرأسمالى ينطوى على صراع بين الطبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا ، وأن هـذا الصراع الطبقى سوف يؤدى حتماً الى انتصار الطبقة الكادحة والقضاء على الطبقة البرجوازية ، وقيام مجتمع لا طبقى .

---

(4) K. Marx : « Communist Manifesto »Progress Publishers . Moscow 1964

لكننا لا نستطيع ، في الواقع ، أن نحدد على وجه الدقة التاريخ الذى نشأت فيه الطبقة البرجوازية . فهيجل ، مثلا ، يعتقد ان جذور هذه الطبقة ضاربة فى أغوار الماضى البعيد وأن ظهورها لم يكن الا تجمعاً لعوامل تاريخية قديمة ظلت تعمل فى الخفاء حتى جاءت اللحظة المناسبة لظهورها . فهو يرى أن هناك خاصية أساسية للثقافة الأوربية الحديثة ترجع الى حد كبير الى القانون الرومانى والى نظريات الحق الطبيعى الحديث . وهذه الخاصية هى أن الناس لا يتصورون أنفسهم أعضاء فى جماعة فحسب بل يعتقدون أيضاً أن لهم حقوقاً خاصة كافراد ربما ضد الدولة ! وكثيراً ما يكون هذا الاعتقاد بأنهم أفراد له الأولوية على كونهم أعضاء فى جماعة(٥) . ويعتقد هيجل أيضاً أن المسيحية كان لها كذلك تأثير عميق فى الثقافة الأوربية لا سيما بعد أن تطورت عن طريق الاصلاح الدينى وعلمانية عصر التنوير ، وبفضلها أصبح الانسان الأوربى يعتقد أنه « فاعل أخلاقى » أساساً ولا يعترف بسلطة أعلى من سلطة الضمير والعقل(٦) .

ويطلق هيجل على الاتجاه الأول اسم «الجزئية» **Particularity** وعلى الاتجاه الثانى اسم « الذاتية » ...... **Subjectivity** وهما معاً يشكلان ظاهرة الفردانية الأوربية الحديثة التى هى الأساس الفلسفى للمجتمع البرجوازى .

لكن على الرغم من أن للفردانية (أو المذهب الفردى **Individualism** ......) جذوراً عميقة الغور فى التاريخ فانها لم

---

(5) Z. A. Pelczynski : «The Hegelian Conception of the State» P . 7 - 8 in (Hegel"s Political Philosophy : Problems & Perspectives edited by Z . A. Pelczynski - Combridge University press 1971) .

(6) Ibid .

تتخذ صفة السيطرة والغلبة فى الثقافة الأوربية الا منذ اندلاع الثورة الفرنسية (٧) .

ولما كان هيجل من اكبر الفلاسفة الذين شرحوا المجتمع البرجوازى لأنه عاصره وعاش فيه وسبر عن عمق أغواره ووقف على ما يحمله من مفاسد وشرور وماداموا يقولون انه : « قبل توكفيل ... Tocqueville ومارکس .... Marx بزمن طويل ، أدرك هيجل أن البرجوازية هى التى تشكل الأساس الاجتماعى للفردانية وانها هى التى تم من خلالها تقويض دعائم مجتمع العصور الوسطى الأوربية التقليدى .. »(٨) فاننا لهذا السبب سوف نتوقف لنعرض التشريح الذى قدمه هيجل لهذا لهذا المجتمع البرجوازى .

ـ المجتمع المدنى (البرجوازى) :

يعالج هيجل موضوع المجتمع البرجوازى فى القسم الأخير من كتابه « أصول فلسفة الحق » ـ وهو قسم جعل عنوانه « الحياة الأخلاقية » أو الأخلاق الموضوعية وان كان يقصد بالعنوان الحياة السياسية بصفة عامة أنه يتركب من اللحظتين السابقين (الحق المجرد ـ والأخلاق الذاتية) ، فيما يقول هيبوليت ، لأنها هى وحدها اللحظة العينية : فالفكرة الشاملة فى اللحظتين السابقتين كانت تنقصها الواقعية réalité ولهذا فهى تظل الحاحاً .... Une Exigence ففى « الحق فى ذاته » أو الحق المجرد نفتقر الى الذات ، أما اللحظة الثانية التى يمثلها الاستعداد الذاتى فانه ينقصها أن يتحول الحق الى

(7) Z. A. Pelczynski : Ibid, p 7

(8) Ibid .

واقع . اما هاهنا فى اللحظة الثالثة أى فى الأخلاق الموضوعية فان الفكرة الشاملة تتحقق اعنى اننا نجد فيها - بالمعنى الهيجلى - اتفاق الواقع مع التصور . فمن ناحية اصبح الحق المجرد هو الجوهر الاجتماعى : اعنى العادات والمؤسسات ودستور الدولة وتنظيمها .. ومن ناحية اخري لم يعد هـذا الجوهر « فى ذاته » فحسب وانما هو من عمل الذوات التى صنعته وحققته(٩) .

وهى تشمل عنده الأسرة ثم المجتمع المدنى (الذى يسميه ايضا بالمجتمع البرجوازى ونفس التسمية موجودة ايضا عند ماركس) وأخيراً الدولة . وهـذا القسم الثالث او اللحظة الثالثة اكثر اهمية من اللحظتين السابقتين : فالواقع أن هيجل كتب الجزء الخاص بالأسرة بايجاز شديد اذ لم يزد عن عشر صفحات ثم توقف طويلا عند الموضوعين الآخرين فكتب ما يقرب من ثلاثين صفحة عن المجتمع البرجوازى ، اما الدولة فقد نالت نصيب الأسد اذ كتب عنها ثلاثة اضعاف ما كتبه عن المجتمع البرجوازى : لكن الجدير بالملاحظة حقا هو ان هيجل فى نفس اللحظة التى بدأ ينتقل فيها من الأسرة الى المجتمع المدنى بدأ يغير نغمة العرض تماما ، اذ راحت تبرز تلك النغمة الحادة المتشائمة وذلك الأسلوب العابس الذى انتقد به المجتمع البرجوازى بغير هوادة وصورة فى ثوب قاتم مفجع ! وهى نغمة لا تكاد نجد لها مثيلا فيما كتب الا فى « شذرة يينا Jena » و « ظاهريات الروح » غير أن الجديد هنا لا يقتصر على تغير النغمة وحدها وانما يتعداه الى استخدام الجدل نفسه فهاهنا

---

(9) Jean Hyppolite : Introduction à la Traduction Française de Principes de la Philosophie du Droit p - 21 - 22 (Gallimard Jdeés - Paris 1940 .)

تستخدم الأداء الجدلية على نحو مختلف تماماً ٠٠ (١٠)

والواقع أن هيجل يعتقد أن المجتمع المدنى أو البرجوازى الذى عاصره وانتقده بشدة انما خرج منطقياً من تفكك الأسرة ، ذلك لأن الفرد ، وهو داخل الأسرة سوف يظل فرداً فى خلية اجتماعية صغيرة هى الأسرة وتكون هى غايته وهدفه : وهى غاية كلية ، فهو لا يقاتل ولا يصارع من أجل نفسه وحدها ولا من أجل مصالحه الفردية الخاصة ولكنه يكافح بالضرورة من أجل الغاية الكلية أعنى من أجل الأسرة ٠ لكن تفكك الأسرة يعنى أن أعضاءها انفرط عقدهم وأصبحوا شخصيات مستقلة : كل واحد منهم غاية فى ذاته ولا يعترف بغاية أخرى سواه بل يعامل كل الأشخاص الآخرين على انهم وسائل لتحقيق غاياته ٠ وهذا هو الأساس الأول الذى يرتكز عليه المجتمع البرجوازى وأعنى به الجزئية : أنا ومصالحى الخاصة فى مواجهة الكل الذى يعتبر بالنسبة لى شراً لابد منه ، ومن ثم فلا بد أن يقلل من شره الى أدنى حد ممكن بحيث لا يعتدى على حرمات الحرية الفردية التى اتمتع بها : « فالمبدأ الذى يرتكز عليه المجتمع المدنى هو الفرد الجزئى أعنى اننا فى هذا المجتمع علينا أن ندرس مجتمعاً يتألف من أعضاء يتمسك كل منهم بنظرته الذاتية للأمور ويعمل أساساً لاشباع غاياته الجزئية الخاصة »(١١) ٠

لكن هذه الذرات الاجتماعية الفردية التى يتألف منها المجتمع البرجوازى والتى تجرى وراء اشباع غاياتها الشخصية الذاتية لا تزال

(10) Heiss : « Hegel , Kierkegoard , Marx , p. 1«1 - Eng Trans . by E. B Garside A Delta Book , 1975

(11) Hugh A. Reyburn : « The Ethical Theory of Hegel » p. 215 - Oxford, Clarendon press .. London 1921

ذرات « اجتماعيــة » أعنى أنها تعيش فى المجتمــع أى فى عالم منظم وليس فى عماء مطلق .. Chaos او فوضى تضرب أطنابها بين ربوع المجتمع فهو لا يزال مجتمعاً من خصائصه أن يوجد فيه القانون والنظام فنفس هــذا العماء الذى يحتوى عليه هــذا المجتمع يتحول هو بفســه الى نظام ـ يقول هيجل فى لغته المستعصية :

« ان مبــدأ الجزئية وهو يتطور على نحو مســتقل الى شــمول Totality فانه ينتقل الى الكلية ..... Universality وها هنا فحسب يجد حقيقته ويبلغ صدقه ، ويكون له الحق فى التحقق الايجابى الذى هو جدير به . وليست هــذه الوحدة هى الهوية التى يحتاج اليها النظام الاخلاقى لأنه فى هــذا المســتوى نجــد أنه فى تلك القســمة (الى مبداين) يستقل كل مبدأ ويكون قائماً بذاته . وينتج عن ذلك ان هــذه الوحدة الموجودة هنا لا توجد بوصفها ضرورة مادام الجزئى عن طريق الاضطرار ، يظهر فى صورة الكلية ويبحث عن دوامة فى هــذه الصورة ويجده »(١٢) .

وما يريد هيجل أن يقوله فى هــذا النص الغامض هو أن المجتمع البرجوازى يقوم على مبدأ الجزئية اى ان كل فرد يســعى الى تحقيق غاياته الجزئية لكن فى هــذا الســعى يتحول هــذا المبدأ الجزئى الى كلى : مادام كل فرد من ناحية يقوم بهذا العمل فهو اذن مبدأ عام ، ومن ناحية أخرى لأنه سوف يكتشف انه لا يستطيع تحقيق غاياته الكلية الا عن طريق غيره من الناس « وهكذا ينشأ اعتماد متبادل مطلق بين الكل على الكل : فكل واحد يستخدم الآخرين جميعاً على انهم وســائل لاشباع مطالبه ، وحالة الاعتماد المتبادل هــذه أى اعتماد الشخصيات

---

(12) Hegel : The philosophy of Right p 124

المستقلة بعضهم على بعض هو ما يسميه هيجل بالمجتمع المدنى »(١٣) .
وهكذا نجد أن الجزئى هو نفسه كلى ، وأن الاهتمام الذاتى للفرد ، أى اهتمام الفرد بذاته ومصالحه الجزئية هو نفسه مبدأ عام مشترك وهو يصبغ الناس بصبغة واحدة . ان الجزئية المطلقة واللامبالاة المطلقة للحياة المشتركة بين الناس مستحيلة ولا يمكن تصورها بالنسبة للموجود العاقل لأن الناس لكى يشبعوا غاياتهم الخاصة عليهم ان ينظروا الى أهداف الآخرين وأفعالهم وسلوكهم ، فالوسط الاجتماعى يضمنا جميعاً واحتكاك الناس بعضهم ببعض يجعلنا نضع مجموعة من النظم والمبادىء والقواعد به وهى التى تمثل تعاليم المذهب الفردى »(١٤) .

ومن هنا نستطيع أن نقول ان المجتمع البرجوازى يعتمد على مبدأين أساسيين : الأول : هو الشخص الجزئى الذى يسعى الى اشباع حاجاته . والثانى : الارتباط الضرورى بين هذه الشخصيات الجزئية لأن كل منهم يجد نفسه معتمداً على الآخرين فى عملية الاشباع هذه . ولقد عبر هيجل عن هذين المبدأين بلغته المجردة فقال :

« الشخص العينى الذى هو نفسه موضوع غاياته الجزئية : هو — بوصفه مجموعة من الحاجات ومزيجاً من الهوى والضرورة الفيزيقية — هو المبدأ الأول فى المجتمع المدنى لكن هذا الشخص الجزئى يرتبط بالضرورة بغيره من الشخصيات الجزئية الأخرى حتى أن كلا منهم يقيم ذاته ويشبعها عن طريق الآخرين — وهذا هو ، عن طريق صورة الكلية ، المبدأ الثانى فى هذا المجتمع »(١٥) .

---

(١٣) لترستيس « فلسفة هيجل » ص ٥٧٧ ترجمة د. امام عبد الفتاح امام دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ط ٢ عام ١٩٧٨ .

(14) Reyburn op . cit p 215

(15) Hegel ; p. 122

لكن دائرة المجتمع البرجوازى الحقيقية التى يجد فيها التعبير الدقيق عن نفسه هى دائرة الحياة الاقتصادية : فهاهنا ابيع وأشترى لا لكى أشبع حاجات الآخر : حاجته الى الطعام أو المأوى لكن لكى استخدم الحاجة التى يشعر بها الآخر كوسيلة لاشباع غاياتى الخاصة . فغاياتى تصبح متوسطة من خلال حاجات الآخرين(١٦) .

ولقد عبّر عن هذا المجتمع البرجوازى كثير من الفلاسفة اللبراليين الذين أسسوا « المذهب الفردى .... Individualism في الفلسفة السياسية ودعموا أركانه على نحو ما فعل جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) الذى دافع دفاعاً مجيداً عن حرية الأفراد وعن حقوقهم الخاصة لا سيما حرية الملكية : « بحيث يمكن أن توصف فلسفة لوك بأنها فلسفة الديمقراطية الرأسمالية عند بدء نشأتها فى الدولة الصناعية المتقدمة .. »(١٧) ولقد ساعدت مبادىء لوك ومن تأثروا به فى القرن الثامن عشر على قيام الثورتين الفرنسية والأمريكية وعلى تحديد المثل السياسية التى عرفت فى غرب أوربا باسم « الفلسفة اللبرالية »(١٨) التى كان لها فلسفة اقتصادية أيضاً وصفها مجموعة من الاقتصاديين على رأسهم آدم سميث مؤلف كتاب « ثروة الأمم » وجماعة الكتاب الانجليز والفرنسيين الذين عرفوا باسم الطبيعيين أو « الفيزوقراط » والذين طالبوا بأسواق حرة ، وبرفع القيود التى تفرضها الدولة على

---

(16) Shlomo Avineri ' . Hegel's Theory of The Modern State, p 134 Cambridge University Press .

(١٧) دكتورة أميرة مطر : « فى فلسفة السياسة » ص ١٠٦ . الطبعة الثانية ١٩٧٨ دار الثقافة للطباعة والنشر .

(18) Jein Hyppolite : op cit p 23

النشــاط الاقتصادى للافراد أو ترك الانتاج والا تفده الا قوانين المنافســة وهــذا هو محــور الاقتصــاد الحر الذى جعل شــعاره « دعه يعمــل Laisser Faire ، دعه يمر ..... Laisser Passer أى دع الفرد من « طبقة أصحاب الأعمال » يعمل بغير قيود على عماه ودع التجارة تمر وتدخل البلاد ولتنحصر مهمة الدولة فى الاصلاحات التربوية والاجتماعية وحماية الأمن فى الداخل والخارج وحماية الملكية الخاصــة من أن يقع عليها أى اعتداء هــذا المجتمع البرجوازى الذى يصفه هيجل بأنه « دولة الفهم والضرورة » وأنه يتطابق مع « اللحظة الذاتية » فى مجمل فلســفة الحق ، اذ فيه يعتقد الأفراد انهم يحققون حريتهم الفردية والذاتية ، فهم يعملون ، ويتبادلون ويعقدون العقود ؛ ولكنهم يفعلون ذلك على نحو يعتقدون معه دائماً انهم يعملون وينتجون ويتبادلون من أجل ذواتهم . كما لو كانت الارادة الفردية هى الارادة العقلية فى ذاتها ولذاتها(١٩) . وهــذا عالم الاقتصاد السياسى الذى صدم هيجل حتى جعله فى محاضرات « يينا » عامى ١٨٠٦ – ١٨٠٧ يصف التمزق الداخلى لهذا العالم الذى يأخذ بمبدأ « دعه يعمل دعه يمر » وكأنه دراما المجتمع الحديث »(٢٠) .

ومن هنا فقد كانت الفلســفة اللبرالية فى السياسة والاقتصاد معبرة أدق تعبير عن نفوذ الطبقة البرجوازية وتغلغلها مما أدى الى تكوين كثير من الاحتكارات التى تحولت فى القــرن العشرين الى ما نســميه « بالرأسمالية العالمية » التى اصبحت تقوم على وحدات كبيرة وتعتمد فى اقتصادياتها على الســيطرة العالميــة الخارجية . وظهرت العــلاقة الوثيقة بين اللبرالية والامبريالية العالميــة التى تعمل على وأد الاقتصاد للدول النامية(٢١) .

---

(19) Jein Hyppolite : op cit p. 23
(20) Ibid .

(٢١) د. أميرة مطر : « الفلســفة السياسة » ص ١٢٠ – ١٢٢ .

هــذا هو المجتمع الذى عاصره هيجل وقام بتحليله وبيان فساده يقول : « أن ظهور المجتمع المدنى (البرجوازى) كان انجازاً المجتمع الحديث »(٢٢) ٠ لكن الملاحظ أن هيجل لا يعرض « لطبقة البرجوازية » وانما يحلل المجتمع البرجوازية كله بجميع تكويناته ٠ وهو المجتمع الذى يكون فيه الفرد الجزئى ومطالبه وغاياته الأساس الأول الذى تقوم عليه دعائم النظام الاجتماعى ٠ « ففى المجتمع المدنى يعد كل عضو غاية فى ذاته وكل ما عداه لا يعنى شيئاً بالنسبة اليه »(٢٣) ٠ أما الدولة فتعتبر شراً لابد منه من حيث أن بقاءها ضرورى لحماية هــذا الفرد لكن لابد أن نقلم أظافرها وأن نقلل من شرورها ونحد من تدخلها فى هــذه الحرية الفردية !

غير أن هيجل يعتقد أن مثل هــذه الحرية مجردة وشكلية فحسب ولا مفر لها من أن تتحول الى ضرورة ! لمــاذا ؟ لأن كل فرد وهو يسعى لمصلحته الخاصــة يبدو حراً لأنه لا يسعى لتحقيق شىء سوى ذاته أو هكذا يعتقد المذهب الفردى ، ولكنك لو تأملت هــذا النظام قليلا لوجدت أن كل فرد يضغط عليــه الآخرون من الخــارج ٠ وأن النظــام الاجتماعى والاقتصادى يحدد مجال العمل لكل منهم ومن ثم يوجه نشــاط كل منهم ٠ ولو أنك سرت مع هــذا التحليل حتى نهايته لوجدت أن الأفراد يقعون فى حبائل وشباك مغزولة من أغراض ووظائف الأفراد الآخرين وهم لا يستطيعون منها فكاكاً ٠ انهم يسيرون فى طريق حريتهم : لكن هــذا الطريق رصفته لهم ارادة غيرهم من الأفراد ٠ ان الفرد فى المنافســة غير المقيدة يبدو حراً من الناحية الشكلية لكنه فى الحقيقة يعتمد اعتماداً كاملا على الظروف القائمة ٠ ومن هنا كانت المقولة المناســبة لوصف

---

(22) Hegel : The Philosophy of Right p. 266

(23) Ibid ; p. 267

هـذا الوضع هى مقولة الضرورة ... necessity لأن الفرد ليس فى هوية واحدة مع الكل الحاكم المسيطر ، كما أنه يفشل فى أن يفهم أن المبدأ الحقيقى لوجوده الروحى هو حياة جماعية أوسع تحتوى بداخلها على غايته الجزئية الضيقة وتخضعها لشروطها(٢٤) .

ولهذا فان هيجل يعتقد أن هـذه الحرية اللبرالية ليست هى التنظيم السياسى النهائى للمجتمع السليم لأنها فى النهاية تعبر عن « ضرورة » أو قسر خارجى على الفرد . وان كانت تمثل عنصراً جوهرياً فى التنظيم الحقيقى للدولة التى لا تكون دولة على الاصالة ما لم تشمل هـذه الفردية وهـذا الاختلاف . لكن فى الدولة الحقة تفهم هـذه المسائل فهماً جديداً وفى ضـوء صحيح اذ تحل الارادة العاقلة محل الثروة ، ويشـعر كل مواطن ان الصالح العام هو غايته الخاصـة(٢٥) .

ففى المجتمع المدنى البرجوازى أتحرك من الخارج (ولهذا يسـميه هيجـل بالدولة الخارجيـة ، أو دولة الفهـم ، أو عالم التفـاعل بين الأفراد)(٢٦) . مدفوعاً بضغط خارجى من الظروف المحيطـة بى ، ومن هنا فان الحرية التى تبـدو أمام عينى ليست حرية حقيقية أنها « ضغط » أو « قسر » أو « ضرورة » لأن ما يحركنى ويوجه نشاطى هو النظـام الاجتمـاعى السـائد والأوضاع الاقتصـادية القائمـة وارادة الآخرين الذين يرصفون لى الطريق الذى أسير فيه بمحض « حريتى » ، تماماً كمن يغزل لى الحبل الذى اتولى أنا بارادتى الخاصـة ومشيئتى الذاتية شـنق نفسى بواسطته ! !

---

(24) H. Reyburn : The Ethical Theory of Hegel p 216
(25) Hegel : The Philos . of Right p 267
(26) Ibid ; p. 123

فاذا كان عامل الجزئية هو اللحظة الضرورية التى يرتكز عليها المجتمع البرجوازى فان عامل الكلية يظهر منذ البداية أيضاً وان كان ظهوره خافياً مستتراً عن العين العابرة ، ان الفرد لا يبحث فى مثل هذا المجتمع الا عن غاياته الجزئية الخاصة · لكنه حين يفعل ذلك فانه يخدم الكل فى الواقع على الرغم من انه لا يرغب ولا يعلم ذلك : فنسيج المجتمع مغزول بطريقة تجعل كل فرد يعتمد على الآخرين جميعاً ، ومن ثم فكل فرد فى بحثه عن مصالحه انما يحقق مصلحة المجموع كله : فأنا اقوم بعمل ما بغية أن أشبع جوعى لكنه عمل المجتمع كله ، وعلى ذلك ففى المجتمع المدنى نجد أن كلا من المبدأين : مبدأ الجزئية ومبدأ الكلية فعال ومؤثر · لكن اتحادهما ليس اتحاداً عضوياً حقيقياً فهذا الاتحاد العضوى الحقيقى لن يوجد الا فى الدولة(٢٧) · وعلى ذلك « ففى مجرى تحقق البلوغ الفعلى للغايات الأنانية ـ وهو بلوغ مشروط على هذا النحو بالكلية ـ يتشكل نظام كامل من الاعتماد المتبادل حيث تصبح حياة الفرد وسعادته ، ووضعه القانونى مغزولة ومتداخلة فى نسيج واحد مع حياة وسعادة وحقوق جميع الأفراد · وفى هذا النظام فان سعادة الفرد ·· الخ تعتمد وتتحقق بالفعل ولا تكون مضمونة الا داخل هذا النظام المترابط · ويمكن أن ينظر الى هذا النظام لأول وهلة على انه : الدولة الخارجية ، أو الدولة التى تقوم على أساس الحاجة أو الدولة على نحو ما يراها الفهم »(٢٨) · على ذلك فان المجتمع البرجوازى الذى يعبر عند هيجل عن انحلال الأسرة وتفككها بحيث يبدأ كل عضو فيها فى البحث عن أهدافه ومطالبه الخاصة ويصبح كل

---

(١) ولتر ستيس « فلسفة هيجل » ص ٥٨٢ من ترجمتنا العربية السالفة الذكر ·

(28) Hegel : Philos . of Right : p 123 Eng. Trans by T . M. Knox

ما عداه لا يعنى عنده شيئاً ـ مثل هـذا المجتمع الذى يقوم على اهداف فردية أنانية يقدم لنا مشـهداً قاتماً مشـهد الدولة التى تقوم على البؤس والضنك والتطرف ! يقول : « ان الجزئية بذاتها اذا ما اطلق لها العنان فى كل اتجاه لاشباع حاجاتها ونزواتها العارضة ، ورغباتها الذاتية ـ فانها تدمر نفسـها ومفهومها الجوهرى فى عمليـة الاستمتاع هـذه . وفى الوقت نفسـه فان اشباع الحاجة ضرورى وعرضى على السـواء : هو عرضى لأنه يخلق رغبات جديدة بغير نهـاية ، وهو فى اعتماد تام على النزوة والصـدفة العارضة ، كما انه كذلك محكوم بواسـطة قوة الكلية . وفى مثل هـذه الأضداد وتشابكها وتعقدها يقـدم المجتمع المدنى مشـهداً يمثل التطرف والبؤس والفسـاد الطبيعى والأخلاقى المشـترك بينها جميعاً »(٢٩) .

لكن ما الذى جعل هيجل يصور المجتمع البرجوازى بهذه الصورة القائمة .. ؟ ! ولمـاذا يصفه بهذه الخصائص السـلبية المدمرة ؟ الواقع اننا لكى نفهم المجتمع البرجوازى على نحو ما صوره هيجل فان علينـا ان نرجع الى الأصل الذى صدر منه هـذا المجتمع والى العوامل التى يتركب منها بناؤه .

المجتمع البرجوازى عند هيجل يتألف من ثلاثة عوامل اساسية هى على النحو التالى :

١ ـ نظـام الحاجات .

٢ ـ الهيئـة القضائية .

٣ ـ الشرطة والنقابات .

وعلينا الآن أن نتحدث فى شىء من التفصيل عن كل عنصر من هذه العناصر الأساسية فى تركيب هذا المجتمع :

---

(29) Ibid, p. 123

اولا ـ نظام الحاجات :

قلنا ان المجتمع البرجوازى يعتمد على الشخصية المستقلة التى تنظر الى نفسها على أنها الغاية الوحيدة ، فالفرد هنا ينشد تحقيق غاياته الخاصة وحدها • وما دامت هذه الغايات شخصية فحسب وليست كلية فهى حاجاته : حاجته الى الطعام ، والشراب ، والمسكن ، والملبس • الخ ولا يشترط بالضرورة أن تكون هذه الحاجات مادية فحسب لكن المهم أنها حاجات شخصية تخلو من عنصر الكلية • ولكن لما كان الفرد يستخدم جميع الأفراد الآخرين كوسائل لتحقيق غاياته : « ولما كانوا هم يستخدمونه بالطريقة نفسها فانه ينشأ نظام من الاعتماد المتبادل فى النسيج الاجتماعى للمجتمع • فأنا اعمل لاشباع غاياتى الخاصة ، لكن الآخرين يعتمدون على عملى لاشباع حاجاتهم ، وأنا بدورى اعتمد عليهم لاشباع حاجاتى وذلك هو نظام الحاجات »(٣٠) •

واذا ما تساءلنا عن السبب الذى حدا بهيجل الى رد الأصل الذى صدر عنه المجتمع البرجوازى الى نظام الحاجات •• لكانت الاجابة على النحو التالى : لما كانت الحياة الاجتماعية تضرب بجذورها فى الطبيعة فان عناصر المجتمع المدنى البرجوازى تتطور من دوافع وحاجات الحياة الحيوانية ، لكن فى المجتمع ، مهما يكن بدائيا فجاً ـ تتسع هذه **الحاجات وتتعدد(٣١) . ومن هنا كان العامل الأول فى تكوين الآخرين** جميعاً ـ وهذا هو ما نعنيه باسم نظام الحاجات •• »(٣٢) • والواقع ان حاجات الانسان وان كانت تبدأ من الحاجات الطبيعية المادية التى

---

(٣٠) ولترستيس « فلسفة هيجل » ص ٥٨٣ من الترجمة العربية •

(31) Reyburn op cit p. 217

(32) Hegel : philos . of Right p 126

يشــترك معه فيها الحيوان الا أنها تتضاعف وتتعدد على نحو لا نهاية له ، فالانســان لديه هــذه القدرة على زيادة الحاجات وتنويعها ، وخــلق حاجات جديدة وتلك ميزة يتمتع بها الانســان دون الحيوان فالأخير يحيا فى دائرة محدودة من الوسائل والأساليب التى تكفى لاشــباع حاجاته المحدودة أيضاً • يقول هيجل فى هــذا المعنى :

« حاجات الحيوان ، وطرق ووسائل اشباعها ، هى على حــد ســواء تخضع لمجال محدود • وعلى الرغم من أن الانســان يخضع كذلك لهذا التحديد ، فانه فى الوقت نفسه يبرهن على استطاعته أن يتجاوزه ويعلو عليه كما يثبت كليته أولا : عن طريق مضاعفة الحاجات ووسائل اشباعها • وثانيا : بتمييز وقســمة الحاجة العينية الى أجزاء وجوانب مفردة ، تصبح بدورها حاجات مختلفــة أكثر جزئية وبالتــالى أكثر تجريداً •• »(٣٣) • فمن أخص خصائص الانســان فى رأى هيجل قدرته على زيادة حاجاته ووسائل اشباعها زيادة مطلقة • وهــذا الذى يقوله هيجل يتفق مع ما سيقوله ماركس عن المجتمع البرجوازى فأهم ما يميزه فى رأيه هو أن حاجاته ووسائل اشباعها يتجاوزان كل حد بحيث يصل هــذا الاشباع الى كل جانب • يقول هيجل أيضاً : « وبالمثل فان وسائل تجزئة الحاجات وجميع الطرق المختلفــة لاشباعها تنقسم ، هى نفسها ، وتتعدد ، وهكذا تصــبح بدورها غايات قريبة ، وحاجات مجردة ، وهــذا التعدد يسير الى ما لا نهاية(٣٤) •

ومن هنا فاننا نجد هيجل يعارض « روسو » فيما يسميه « بالحالة الطبيعية الأولى » التى وجد عليها الانســان وكانت حاجاته فيها قاصرة

(33) Hegel : Philos . of Right p 127

(34) Ibid

على ما يعرف باسم الحاجات الضرورية أو الطبيعية البسيطة والتى لم يكن يحتاج فى اشباعها الا الى وسائل بسيطة أيضاً : ويعتقد هيجل : « أن مثل هـذه النظرة لا تضع فى اعتبارها لحظة التحرر الكامن فى العمل .. وفضلا عن ذلك فهى نظرة خاطئة أيضاً من حيث أن الاقتصار على الحاجات الفزيقية بما هى كذلك واشباعها المباشر هو تعبير عن الحالة التى انغمس فيها العنصر الروحى فيما هو طبيعى وبالتالى هى حالة الوحشية واللاجدية لأن الحرية لا توجد الا فى انعكاس الروح على نفسها وفى غاية الروح عن الطبيعة .. »(٣٥) .

معنى ذلك ان الحاجات تتطور وتتعدد بطرق شتى حتى أن تقسيم العمل نفسه الذى يظهر فى العالم الاقتصادى أصلا لكى يشبع الحاجات القديمة يخلق حاجات جديدة : كما أن ظروف العمل تخلق ميولا واتجاهات جديدة . وكل مرحلة وكل جانب من جوانب الجهاز الاجتماعى كان فى الأصل وسيلة يتحول الى غاية خاصة ، وتتأسس عادات وآراء تحتاج بمرور الزمن الى اشباع جديد ، وكلما تطور المجتمع أصبح العنصر الروحى مسيطراً فى تحديد الحاجات ، ويصبح الناس متحررين وعبيداً فى الوقت نفسه عن طريق العادات والمواصفات التى تنتجها الروح نفسها(٣٦) .

ومعنى ذلك أن حاجات الانسان تتنوع وتتعدد وتبدأ من أدناها : الحاجات الطبيعية والمادية الى الحاجات الاجتماعية ، ثم الحاجات العقلية الروحية التى هى أرقى حاجات الانسان وعلى ذلك « تمثل الحاجات الاجتماعية همزة الوصل بين الحاجات الطبيعية أو المباشرة

---

(35) Hegel : Philos . of Right p 128 Eng. Trans by T. M. Knox

(36) Reyburn op cit p. 217

وبين الحاجات العقلية أو الروحية التى تظهر من الفكر ـ والحاجات من النوع الأخير هى التى تكون لها الغلبة بسبب كليتها .. »(٣٧) .

الحاجة ، اذن ، هى المادة الخام للمجتمع البرجوازى وهى تنبع من الطبيعة وتتعدل وتصبح روحية بواسطة الفكر والارادة لكنها فى النهاية تظل فى نظام يزداد على نحو لا حد له ولا نهاية ، ويفرق هيجل داخل نظام الحاجات المتعددة بين ثلاثة عوامل هى على النحو التالى :

العامل الأول : هو الاعتماد المتبادل الذى يعبر عنه النسيج الاجتماعى للمجتمع والذى يظهر الكلية الضرورية للروح البشرى واضحة : فالانسان حتى عندما يستهدف تحقيق مصالحه الشخصية وغاياته الخاصة وحدها من وراء عمله فانه لا يستطيع أن يمتنع عن العمل من أجل الكل فهو فى تحقيقه لغاياته يحقق الغاية الكلية فهذا الانسان لأنه عاقل يختلف عن الحيوان الذى تدفعه غاية جزئية(٣٨) .

العامل الثانى : هو العمل . ذلك لأن اشباع الحاجات يتم أساسا من خلال العمل فموضوعات الطبيعة نادراً ما توجد على نحو يشبع احتياجاتنا بل هى توجد كمادة خام علينا تحويلها عن طريق النشاط البشرى الى شىء يحقق اشباع حاجاتنا : فانا مثلا فى حاجة الى مسكن ، ومواد هذا المسكن توجد على نحو خام فى الطبيعة ، لكنها لا توجد على نحو يشبع حاجتى فى بناء مسكن . صحيح أن هناك الأخشاب على شكل شجر والحديد والأحجار .. الى غير ذلك من مواد البناء

(37) Hegel : Philosophy op Right p 128

(٣٨) ولتر ستيس : « فلسفة هيجل » ص ٥٨٣ من ترجمتنا العربية السالفة الذكر .

لكن لابد من تحويلها وتشكيل الأشجار الى اخشاب بصورة معينة ، وطرق الحديد على نحو خاص ، وتقطيع الأحجار .. الخ وهكذا يصبح العمل تحويلا لاطبيعة من مادة خام جامدة صلبة الى « موضوعات روحية » ، وذلك بسريان الأغراض الروحية ، والانسانية فى مادة صلبة لا روح لها . وتكييفها بجعلها تلائم الحاجات البشرية العقلية . يقول هيجل :

« من خلال العمل فان المادة الخام التى تزودنا بها الطبيعة مباشرة تتكيف بطريقة نوعية خاصة لتناسب هذه الأعداد الهائلة من الغايات بكل أنواع العمليات المختلفة . وهذا التغير فى الشكل هو الذى يخلع على الوسائل قيمتها ويعطيها نفعها ، ومن هنا فان الانسان فى كل ما يستهلكه ، أيا ما كان نوعه ، فانه يلتقى أساسا بمنتجات البشر . ومن هنا فاننا نقول : ان منتجات الجهد البشرى هى التى يستهلكها الانسان .. »(٣٩) . **فالعمل ، اذن ، هو الوسيط بين الانسان والطبيعة** ومن ثم فالعمل باستمرار يشكل لحظة من لحظات التحرر لأنه هو الذى يمكن الانسان من العلو على الحدود الفيزيائية وتجاوز تلك الحدود التى فرضتها عليه الطبيعة(٤٠) . **ويرى افينرى أن هناك تشابهاً مذهلا بين** نظرة هيجل ونظرة ماركس عن الانسان بوصفه « الانسان الصانع « Homo Faber »(٤١) .

واذا كان العمل هو الأداة التى تشكل مادة الطبيعة الخام الى صور تناسب اشباع حاجاتنا فان الفهم البشرى يقطع دليل كل حاجة الى اقسام متعارضة بحيث يصبح كل جزء منها بذاته حاجة جديدة ، ويمكن أن يستمر هذا التقسيم الفرعى للحاجات بغير حدود من حيث

---

(39) Hegel : Philos . of Right p 128 - 129
(40) S. Avineri : Hegel's Theory of the Modern state p. 144
(41) Ibid

التعدد وكثرة الحاجات ، ولما كان العمل يتبع هـذه التقسيمات التى يقدمها الفهم ويكرس نفسه لاشباع هـذه الحاجات الجديدة المتزايدة ، فاننا نحصل فى النهاية على مبدأ : تقسيم العمل(٤٢) .

وها هنا تتجلى المفارقة العامة للمجتمع البرجوازى واضحة فالناس فى سعيهم لتحقيق البواعث الفردية والحاجات الذاتية الخاصة أقاموا الصناعات المختلفة ، وتطور العمل واصبح اكثر تخصصاً حتى اصبح الناس يعتمد بعضهم على بعض ، وتأكدت علاقاتهم المتبادلة ، فانه لكى يشبع كل منهم غايته الخاصة فانه ينتج من أجل الآخرين ، ويلعب دوره الخاص وسط بيئة اجتماعية واسعة أقامتها مجموعة من الأفراد فى المجتمع . وهكذا نجد أن الجزئى يتطور لكى يصل الى الكلية ومن خلال هـذا التطور نصل الى العامل الثالث وهو الثروة (٤٣) .

العامل الثالث : الثروة : فالفرد عندما ينتج لنفسه ما يشبع حاجاته فانه ينتج فى الوقت نفسه للكل أيضاً . وهكذا يظهر رأسمال عام أو كمية كبيرة من الثروة التى يمكن أن ينظر اليها على أنها ملك للمجتمع ككل(٤٤). يقول هيجل :

« عندما يعتمد الناس بعضهم على بعض على هـذا النحو ، ويرتبط الواحد منهم بالآخر ، فى العمل وفى اشباع حاجاتهم ، يتحول السعى للاشباع الذاتى الأنانى الى مساهمة فى اشباع حاجات الآخرين جميعاً .

(٤٢) ولتر ستيس : « فلسفة هيجل » ص ٥٨٣ – ٥٨٤ . من ترجمتنا العربية السالفة الذكر .

(43) Reyburn : « The Ethical Theory of Hegel » . p 218

(٤٤) ولتر ستيس « فلسفة هيجل » ص ٥٨٤ .

اعنى أنه عن طريق التقدم الجدلى يتحول السعى الذاتى الأنانى الى توسط للجزئى من خلال الكلى ، ويجعل كل فرد ، عندما يربح ، وينتج ، ويستمتع ، لحسابه الخاص ، فانه فى الوقت نفسه ينتج ويربح لمتعة كل فرد آخر . وضرورة ذلك ضاربة بجذورها فى الاعتماد المتبادل لكل فرد على الكل .. (٤٥) . وهكذا ينشأ ما نسميه بالثروة العامة . وذلك عندما يصبح الاشباع الخاص والاستمتاع الشخصى بالأشياء مشروطاً بعملية مشتركة عامة وهى أنه لكى نفهم ارتباط الحاجات الفردية والأنشطة والاشباعات ، فان علينا أن نفهم العالم الاقتصادى ككل . وأن ندرس نظاماً اجتماعياً من الانتاج والتوزيع :: فالثروة هى نتاج اجتماعى لأنها نتيجة لكثير من الأنشطة المتضاربة وقيمتها : انما تقاس لا على نحو مباشر بالحاجات الفردية وانما بتفاعل هذه الحاجات فى المقايضة والتبادل . وعلى أية حال فان تفصيلات هذا المجال انما تنتمى الى علم الاقتصاد وليس الى الفلسفة السياسية(٤٦) . يقول هيجل : « ان علم الاقتصاد السياسى هو العلم الذى يبدأ من هذه النظرة الخاصة بالحاجات ..., لكنه عليه فيما بعد مهمة تفسير حركة الجماهير وسلوكها وعلاقاتها فى تعقدها وتشابكها وما لها من طابع كيفى وكمى . وهذا العلم هو أحد العلوم التى ظهرت نتيجة للظروف التى اكتنفت العالم الحديث . وتطور هذا العلم يقدم لنا مشهداً مميزاً (كما هى الحال عند سميث ..... Smith وساى .... ، وريكاردو Ricardo)(٤٧) لفكر يعمل فى عدد لا نهاية له من التفاصيل التى

---

(45) Hegel . Philos of Right
(46) Reyburn , p 218

(٤٧) ثلاثة من كبار علماء الاقتصاد الكلاسيكين : وهم :
(أ) آدم سميث .... Adam Smith فى كتابه « ثروة الأمم » نشر عام ١٧٧٦ .

=

تواجهه فى البداية ويستخلص منها المبادىء البسيطة فى موضوعه . ويؤثر الفهم فى هذا العلم ويوجهه . وعلينا أن نكشف فى دائرة الحاجات عن هذا المظهر من المعقولية الكامن فى الموضـوع والمؤثر فيه لكنا اذا نظرنا من وجهة نظر مضادة لألفينا هـذا الميدان يعبر فيه الفهم بما له من أهداف ذاتية وخيالات أخلاقية عن سخطه واحباطه الأخلاقى .. »(٤٨) .

ـ تراكم الثروة :

أن السـعى وراء اشـباع حاجات لا حد لها يؤدى بالضرورة الى خلق النقيض الضرورى : الفقر « فالمجتمع لا يخلق فحسب » رغبات « جديدة بغير نهاية » ، بل يؤدى كذلك الى السـعى الى ثروة لا حد لها أيضاً وبالتالى يؤدى الى فقر مدقع : « ففى هـذه الأضداد وتشابكها وتعقدها يقدم المجتمع المدنى مشـهداً يمثل التطرف والبؤس والفسـاد . الطبيعى والأخلاقى المشـترك بينها جميعاً .. »(٤٩) ومن ثم لا يكون الفقر مجرد حادث عارض نتيجة للمجتمع البرجوازى لكنه من صميم ماهيته فهو ملازم لتكونه(٥٠) . وهكذا يخلق جدل المجتمع البرجوازى مجتمعاً يعتمد فيه الانسـان اعتماداً كلياً على أخيه الانسـان ولا يصبح الانسـان معزولا بل يدخل فى نسـيج الانتاج والتبادل والاسـتهلاك .. الخ ، وهـذا الاعتماد المتبادل يؤدى الى تقسـيم العمل الذى يؤدى بدوره الى مزيد من الانتاج ومزيد من الربح عن طريق ادخال الآلات فى

(ب) ج.ب سـاى ..... J - B - Say فى كتابه « دراسـة للاقتصاد السياسى » نشر عام ١٨٠٣ .

(جـ) د. ريكاردو .... D. Ricardo فى كتابه « مبادىء الاقتصاد السـياسى والضريبة » عام ١٨١٧ .

(48) Hegel : Philos . of Right p 126 - 127
(49) Ibid , p 173
(50) S. Avineri : op cit p 146

الصناعة والانتاج(٤) . يقول هيجل : « أن التقسيم الفرعى للحاجات وللوسائل ينتج عنها تقسيم الانتاج الذى يؤدى الى ظهور تقسيم العمل . وعن طريق هذا التقسيم يصبح عمل الفرد أقل تعقيداً وبالتالى تزداد مهارته فى القسم الخاص بعمله مثلما يزداد انتاجه . وفى الوقت نفسه يعتمد الناس فى كل مكان بعضهم على بعض وعلى علاقاتهم المتبادلة فى اشباع حاجاتهم الأخرى . وفضلا عن ذلك فان تجريد انتاج انسان ما عن انتاج انسان آخر يجعل العمل آلياً شيئاً فشيئاً حتى يصبح من الممكن فى النهاية أن يتنحى الانسان لتحل محله الآلة .. »(٥٢) ومن ثم فان الميكنة والتصنيع هما نتيجتان ضروريتان للمجتمع البرجوازى الذى تتسع فيه شهوات الانسان الى أقصى حد ويصبح التطرف والانفلات عن الحد هو الطابع الأساسى الذى يميز هذا المجتمع ، وكما تتجاوز أشكال التطرف والبذخ والاسراف كل حد كذلك يتخطى الحرمان والضنك والبؤس جميع الحدود . وهكذا يحدث استقطاب للثروة فى جانب وللفقر فى جانب آخر أعنى تتراكم الثروات فى طرف ويتراكم البؤس فى طرف آخر بحيث تظهر طبقة معدمة حرمها المجتمع « من الوسائل الطبيعية للكسب » كما حطم رابطة الأسرة وترك الناس محرومين من كل مميزات المجتمع ..(٥٣) ويتحدث هيجل عن المراحل التى تؤدى بالمجتمع البرجوازى الى هذا الوضع المتدهور فيقول :

« عندما يكون المجتمع المدنى فى حالة نشاط لا يعوقها عائق ، فانه ينهمك فى التوسع الداخلى سواء فى عدد السكان أو فى الصناعة . ويزداد تراكم الثروات بواسطة تعميم(أ) ترابط الناس بواسطة

---

(51) Ibid .
(52) Hegel : Philos . of Right p 129
(53) Ibid . p 148

حاجاتهم . و (ب) عن طريق اعـداد وتوزيع وسـائل اشـباع هـذه الحاجات ، فمن هـذا التعميم المزدوج تأتى أعظم المنافع .. وهذا جانب واحـد من الصورة أما الجانب الثانى فهو ازدياد تقسـيم العمل وتحديث الوظائف الجزئية . والنتيجة هى تبعية وبؤس الطبقة المرتبطة بهذا النوع من العمل . وفى الوقت نفسـه فان ذلك يؤدى الى فقدان القدرة على التمتع بحريات أوسـع لا سيما بالمزايا الروحية أو العقلية للمجتمع البرجوازى .. »(٥٤) .

ويستمر هيجل فى وصف المجتمع البرجوازى بطريقة تذكرنا بحديث ماركس عن صراع الطبقات ـ يقول هيجل :

« عندما ينحدر مستوى المعيشة لجماهير غفيرة من الناس فتصبح اقل من المستوى العادى للحياة ـ وهو المستوى الذى يبدو تلقائيا وكأنه الحد الضرورى لحياة العضو فى المجتمع ـ وعندما يكون هناك بالتالى فقدان للاحساس بالصواب والخطأ ، والأمانة واحترام الذات يجعـل الانسـان يصر على اثبات ذاته بعمله وجهـده فان النتيجة هى ظهـور الدهماء . وهـذا الظهـور يجلب معه فى الوقت نفسـه الطرف الثانى من الميزان الاجتماعى تركيز ثروات غير متكافئة فى أيد عدد قليل من الناس بقدر كبير من السـهولة »(٥٥) . فالفقر عند هيجل ينمو بنسـبة موازية لنمو الثروة فهما طرفا معادلة : فالفقر هـو الثمن الذى يدفعـه المجتمع ليشـترى الثروة . وهكذا يصبح الفقر فى المجتمع الحديث ملازما لبناء المجتمع الذى ينتج السـلعة »(٥٦) .

---

(54) Hegel : Philoso of Right p 149
(55) Hegel : Ibid .
(56) S. Avineri : op cit p 148

لكن كيف يواجه هـذا المجتمع مصير تلك الجماهير الغفيرة التى انحدرت فى البؤس والفاقة ؟ ان جدل المجتمع البرجوازى يصل به هنا الى طريق مسدود يحتم تجاوزه ! فان هـذا المجتمع يجد نفسـه امام حلين لا ثالث لهما :

الأول : أن يلقى بعبء اعالة هؤلاء الناس وضمان المستوى اللائق من الحياة الكريمة على عاتق الطبقات الغنية أو قد تتلقى وسائل المعيشة من مصادر عامة اخرى كالمبرات والمؤسسات الخيرية والأديرة ... الخ . وفى كلتا الحالتين فإن هناك اعالة لهذه الطبقة المعدمة بحيث تتلقى ما يضمن لها البقاء على نحو مباشر وليس بواسـطة عملها ، وها هنا يهدم المجتمع البرجوازى الأساس الذى قام عليـه وهو اسـتقلال الفرد واحساسه بأنه كيان قائم بذاته وشـعوره بالكرامة واحترام الذات ... الخ .(٥٧) .

الثانى : قد يقال أن البديل هـو أن يعطى لهـذه الطبقة الفقيرة ما يضمن لها البقاء بطريقة غير مباشرة من خلال العمل أعنى اتاحة فرص العمل أمام افرادها . وفى هـذه الحالة فان حجم الانتاج سوف يزداد زيادة هائلة وسوف يتناقص عـدد المستهلكين الذين تحولوا هم انفسهم الى منتجين ! (٥٨) .

وهكذا نجد أننا سـواء فى الحل الأول أو الثانى نزيد من حـدة المشـكلة بدلا من حلها : وهكذا يتضح أن المجتمع الموثر رغم تضـخم الثروة فيه لا يكون غنياً بما فيه الكفاية أعنى أن مصادر ثروته الخاصـة ليست كافية بالقدر الذى يكفى للحد من تضـخم الفقر وخلق دهمـاء

---

(57) Hegel : op . cit p 150
(58) Ibid p 150

مقجلة » ! وهكذا يصف هيجل جدل المجتمع البرجوازى وصفاً يقترب جداً من وصف ماركس لتراكم الثروة وظهور شبقة البروليتاريا المعدمة ! بل انه يواصل تحليله لهذا المجتمع فيبين لنا أنه فى أعلى مراحلة يتحول الى مجتمع استعمارى ! يقول هيجل :

« وعلى هذا النحو فان الجدل الداخلي للمجتمع البشرى .. يدفعه الى أن يتجاوز حدوده الخاصة ويبحث لنفسه عن أسواق جديدة وعلى ذلك فان وسائله الضرورية للبقاء فى البلدان الآخرى اما أن يكون نقص ما فيها من بضائع فائضة لديه أو لأنها منزلقة فى الصناعة بصفة عامة »(٥٩) .

ومن الأشياء المثيرة التى تجدر ملاحظتها فى عرض هيجل لجدل العمل على نحو ما يسير فى المجتمع البرجوازى ، وعيه بحقيقة هامة هى أن الفقر ينبغى الا يفهم بمعنى موضوعى فحسب ، فهو عندما يناقش نسق الحاجات فانه يشير بوضوح الى أن للحاجات جانباً ذاتياً وجانباً موضوعياً في آن معا . كما يبين كذلك أنه ليس هناك حد أدنى معين من المعيشة يمكن تحديده مسبقاً وانما ذلك الحد انما يقاس بمستوى الحياة في المجتمع الذى يعيش فيه الفرد » فالمستوى الأدنى من المعيشة : « وهو المستوى الذى تعيش عليه الدهماء يتحدد تلقائياً . لكن الحد الأدنى (بصفة عامة) يختلف اختلافاً ملحوظاً باختلاف المجتمعات : ففى انجلترا نجد أنه حتى أفقر الطبقات تعتقد أن لها حقوقاً »(٦٠) .

---

(59) Hegel : Ibid , p. 151.

(60) Ibid , p. 277

فالحد الأدنى من مستوى المعيشة يتحدد تبعاً لظروف كل مجتمع ، وعلى ذلك فان المجتمع البرجوازى قد نجح فى أن يجعل معاييره عند الاستهلاك جزءاً من صميم الوعى عند اعضائه فى الوقت الذى يعجز فيه عن اشباع هذه المعايير ويتفاقم هذا الشعور نتيجة للزيادة المستمرة فى انتاج البضائع التى ينتجها هذا المجتمع التى لا تستطيع للجماهير شراءها لنقص قدراتها الشرائية . وهكذا يصبح للفقر « تصور » : فالفقر هو التعبير عن التوتر بين الحاجات التى يخلقها المجتمع البرجوازى وعجزه عن اشباعها(٦١) .

فهيجل هنا يشير الى عدة أمور هامة :

(أ) أن الفقر له جانبه الذاتى الى جانب الوجه الموضوعى .

(ب) أن الفقر لا يمكن أن يحدد تحديداً كمياً فحسب : فالفقر يتضمن أيضاً الحرمان من الثقافة ومن التعليم ومن الخدمات العامة بل أنه قد يتضمن أيضاً الحرمان من العزاء الدينى الذى يخفف مما يعانى منه الانسان على المستوى الروحى .

(جـ) أن الحد الأدنى من مستوى المعيشة يختلف وفقاً لمستوى المجتمعات المختلفة .

والمهم فى ذلك كله أن الفقر وحده لا يخلق طبقة الدهماء وانما الاحساس بالفقر والشعور الداخلى بالسخط ضد الأغنياء وضد المجتمع وضد الحكومة ... الخ . ومن خلال هذا الموقف ، ومن خلال تبعية الانسان واعتماده على الصدفة يشعر بأنه تافه عديم القيمة مثل

---

(61) S. Avineri : Hegel's Theory p 149 ..

منشر دى نابولى .... Neapolitan Lazzaroni وها هنا يولد فى الدهماء شعور سىء هو احساسهم بفقدان الكرامة التى تكفى لضمان بقائهم بواسطة عملهم وفى الوقت نفسه يشعرون ان من حقهم ضمان وجودهم »(٦٢) .

وعندما يصل الفقر الى هذا الحد الكيفى تظهر الدهماء : مجموعة من الموجودات البشرية الغريبة عن المجتمع ليس لديها احساس بالانتماء اليه . فعنصر الوعى اساسى عند هيجل وهو يصف ظهور هذه الجماعة داخل المجتمع البرجوازى . وهكذا نجد هيجل يصر المرة بعد المرة على الطبيعة الجدلية لظهور الفقر واعتباره ظاهرة مصاحبة للغنى الفاحش . وهذا التحليل يؤدى بهيجل الى المطالبة بتدخل الدولة ، فالموقف فيما يعتقد لا يمكن أن يعود اليه الانسجام الا بواسطة الدولة التى لها سلطان يفوق المجتمع البرجوازى : وهكذا يدعو الى وضع شكائم على الصناعة مثل ضبط الأسعار والرقابة الواعية والتوجيه المباشر ... الخ .

« فالمصالح المختلفة بين المنتجين والمستهلكين قد تؤدى الى صدام بينهما . وعلى الرغم من ان التوازن السليم بينهما يمكن ان يحدث تلقائياً ، فان التوافق بينهما يحتاج الى ضبط وسيطرة أعلى من طرفى النزاع . ومما يبرر ممارسة مثل هذه السيطرة او الضبط فى حالة واحدة (مثلا فى تحديد اسعار السلع الضرورية للحياة) يعتمد على أن السلع المعروضة للبيع على نحو عام والمطلوبة يومياً بطريقة مطلقة لا تقدم الى فرد ما بما هو كذلك وانما الى المشترى الكلى اى الى الجمهور . ولهذا فللجمهور الحق فى شيئين معاً : الحق فى الا يغش وكذلك فى

---

(62) Hegel : op cit p. 277

تنظيم فحص السلع المعروضـة وتلك مصلحة مشـتركة تقوم بها سـلطة عامة(٦٣) . ومن هنا فاننا نستطيع أن نقول ان هيجل كان واعياً بحاجة الصناعة الى ضبط عام يقول :

« الرعاية العامة والتوجيه يصبحان ضرورة لا غنى عنها فى حالة الأفرع الواسـعة من الصناعة لأنها تعتمد على ظروف خارجية وارتباطات بأحوال بعيدة لا يستطيع الأفراد ادراكها ككل وهم الأفراد الذين يرتبطون بهذه الصناعات من أجل معيشتهم »(٦٤) .

---

(63) Hegel : Philos of Right , p 147

(64) Ibid

الطبقـات الاجتماعيـة

نظرية هيجل عن الطبقات الاجتماعية تنبع من نظريته فى تقسيم العمل الذى هو نفسه نتيجة للانتاج الاجتماعى يقول :

« ان الشـبكة المتنوعة تنوعاً لا حـد له لحركة الانتاج المتبادل ، وكذلك عمليات التبادل . وايضاً الوسائل المتعددة بطريقة لا نهاية لها وهى الوسـائل المستخدمة فى عمليـة الانتاج تصبح متبلورة بسبب الكلية الكامنة فى مضمونها وتتمايز الى مجموعات عامة . وكنتيجة لذلك فان المجموعة بأسرها تتأسس على نظم جزئية من الحاجات والوسائل وانواع العمل التى تناسب اشباع الحاجات . واساليب الاشباع وانواع الثقافة النظرية والعملية اعنى انها تشـكل نظماً ينتسب اليها الأفراد وبعبارة اخرى تؤدى الى تقســيم الطبقات »(٦٥) .

وهناك وجـه آخر لتقسيم الطبقات واعنى به لحظة التكامل ، فالشخص عندما ينتمى الى طبقة فانه يرتبط بشىء كلى ومن هنا كانت الطبقات هى العامل المتوسط بين الوجود الفردى الخالص والسـياق الاجتماعى الواسـع لحياته : « فعندما نقول ان فلاناً لابد أن يكون « شخصاً ما » فاننا نعنى بذلك أنه لابد له أن ينتمى الى طبقة اجتماعية خاصـة ، ما دامت كلمة شـخص ما تعنى أن يكون له وجـود واقعى فالانســان بدون طبقة هـو شـــخص خاص تمـاماً لم تتحقق كليته بالعقـل »(٦٦) .

ويقسم هيجل الطبقات على النحو التالى :

اولا : طبقة الزراع أو الفلاحين وهى التى يسميها بالطبقة المـادية

---

(65) Ibid ; p. 270
(66) Hegel : Philoso . of Right , p 130 - 131

أو الجوهرية أو المباشرة وهى تعتمد فى ثروتها على المنتجات الطبيعية من الأرض التى تقوم بفلاحتها وهى تعيش عيشة بسيطة وتتصل اتصالا مباشراً بالطبيعة متقبلة ما تمنحه لها : « ان الفرد فى هذه الطبقة يقبل بغير تفكير ما يقدم اليه ويأخذ ما ينتجه شاكراً الله على ما أعطاه ، وهو يعيش بروح الايمان والثقة فى أن هذه الخيرات سوف تستمر ؛ وما يأتى اليه يكفيه فما أن يستهلكه حتى يظهر من جديد غيره وهذا هو الاتجاه البسيط للروح التى لا يتركز فيها الصراع ضد الأغنياء »(٦٧). ولهذا فان الفكر لم يدخل فى هذه الطبقة بعد والفكر عند هيجل هو لحظة الاختلاف والتباين .

ثانياً : طبقة التجار والصناع . ويقل اعتماد هذه الطبقة على الطبيعة بينما يزداد اعتمادها على عملها الخاص وهى طبقة الفكر الانعكاسى أو الصورى التى تقوم بتحويل المادة الخام وتشكيلها على نحو يشبع حاجات الانسان ولهذا فهى تعتمد أساساً على عملها مستخدمة فكرها وذكائها فى اشباع حاجات الفرد وحاجات الآخرين . ولهذا فهى تنقسم داخلياً الى :

(١) العمل من أجل اشباع الحاجات الفردية بطريقة عينية نسبياً عن طريق نظم فردية وتلك هى : الحرف اليدوية .

(٢) العمل على نحو أكثر تجريداً . أعنى الانتاج على نطاق واسع لاشباع حاجات فردية لكنها حاجات ذات طابع كلى – وتلك هى الصناعة .

(٣) تبادل المنافع المنفصلة بين الأفراد من خلال استخدام الوسط

---

(67) Hegel : Ibid ,p . 271

الكلى للتبادل وهو المال الذى يحقق بالفعل القيمة المجردة لكل سلعة ــ وتلك هى التجارة(٦٨) .

ثالثا : أما الطبقة الثالثة والأخيرة فيسميها هيجل بالطبقة الكليــة وهى طبقة الخدمات المدنية ومهمتها رعاية الصالح العام للمجتمع ولهذا فينبغى أعفاؤها من العمل المباشر لاشباع حاجاتها : « بحيث تجد مصلحتها الخاصــة اشباعها فى عملها من أجل الكلى » وتلك هى الطبقة الحاكمة التى تعتمد على مبدأ العقل .

ومهما يكن من شىء فمن الأهمية القصوى أن نلاحظ أن هيجل لم يجعل من المولد أو النسب أو المحتد .. الخ . الاعتبارات الأساسية التى تقرر تحــديد الطبقة التى ينتمى اليها الانســان « فهو يقول أن الأهلية والمولد ، وغيرهما من الأمور العرضية تلعب دوراً لكن القرار الأخير يعتمد على اختيار الفرد الحر وعلى مقدرته فى انجاز وظائف الطبقة التى يتطلع اليها وهو يلوم افلاطون لأنه جعل تقسـيم الأفراد الى طبقات وظيفة من وظائف الحكام وفى ذلك انكار للحقوق الذاتية ولحرية الفرد ، وهو ينتقد بشدة نظام الطبقات المغلقة ... Castes الســائد فى الهند الذى يجعل من المولد العامل الوحيــد الحاسم فى تحــديد الطبقة » .

---

(٦٨) ولتر ستيس « فلســفة هيجل » ـ المجلد الثانى « فلســفة الروح » ص ١٠٣ ــ ١٠٤ المجلد الرابع من سلسلة المكتبة الهيجلية ــ اصدرته دار التنوير ببيروت الطبعة الثالثة عام ١٩٨٣ .

ثانيا ـ الهيئة القضائية :

كان القسم الأول من المجتمع المدنى هو نظام الحاجات الذى يعنى أن هـذا المجتمع يقوم أساساً على الفرد وتحقيق غاياته الشـخصية التى هى فى الوقت ذاته حاجاته : حاجته الى الطعام ، والشراب ، والمسكن .. الخ . والفرد يستخدم غيره كوسائل لتحقيق هـذه الغايات وهم يستخدمونه بالطريقة نفسـها ، وهكذا ينشأ نظام من الاعتماد المتبادل فى النسيج الاجتماعى للمجتمع ، وهو اعتماد يحتاج الى تنظيم يتخذ شـكل القوانين . واذا تذكرنا أن فلسـفة الحق تقوم على أساس الشخصية البشرية التى هى أساس الحق المجرد ، عرفنا أن هـذا الحق لا ينبع من أصل تاريخى أو قومى ، وانما من طبيعة العقل نفسـه ، ذلك لأن **العقل فى تطوره يصل الى مرحلة الوعى الذاتى بعـد أن يترك مرحلة** الحيوانية ، اعنى أنه يصل الى الذات « وتقوم حقوق الانسـان وشخصيته على لا نهائية الذات ، فالأشـياء لا حقوق لها ، أما الشخص فهو صاحب الحق المطلق على جميع الأشـياء ، ـ لكن الحق فى هـذه الدائرة كان مجرداً ولهذا سميت باسـمه « دائرة الحق المجرد » ، أما الآن فان هذا الحق يتحول الى قوانين ، ويتم ذلك من خلال الاعتماد المتبادل بين الأفراد ، وكذلك من خلال تبادل الحاجات والعمل على اشباعها ، **فقد ظهر الآن نسـيج موضوعى للمجتمع ، وهو موضوعى لأنه متحقق** فى العالم الخارجى : وخيوط هـذا النسـيج هى أشـخاص وعلاقات خارجيـة بين الأشـخاص بعضـهم وبعض وهى بالضرورة حقـوقهم **وواجباتهم نحو الآخرين . ومن هنا فان ما كان موجوداً فى البداية على** على نحو مجرد قد تحول الآن الى شىء موضوعى موجود بالفعل أعنى أنه أصبح قانوناً . وهكذا ينشأ ما يسميه هيجل بممارسة العدالة أو الهيئـة القضائية : « ان ممارسة العدالة تجعل من الحق المجرد قانوناً ، وتدخل

نظاماً شاملا واعياً فى عمليات المجتمع المدنى العرضية العمياء ٠٠ وتصوير القانون هو محور كتاب « فلسفة الحق » الى حد أن بعض الكتاب يسميها احيانا « بفلسفة القانون » فكل المناقشة التى يتضمنها الكتاب تفترض ضمناً أن الحق يوجد فعلا بوصفه قانوناً ، وهو افتراض يترتب على المبادىء الأنطولوجية لفلسفة هيجل ٠٠ ٠٠ »(٦٩) ٠

وتنقسم الممارسة الفعلية للعدالة عند هيجل ثلاثة اقسام هى :

(أ) الحق بوصفه قانوناً ٠
(ب) القانون وقد تعين ٠
(جـ) المحكمة ٠

(أ) الحق بوصفه قانوناً :

الوجه لممارسة العدالة أو للهيئة القضائية هو الاعتراف بالقوة الملزمة للحق التى تكتسب بفضل هذه القوة الملزمة خاصية القانون الايجابى ، فالسمة الأساسية للقانون هى كليته ، ولا تظهر هذه الكلية الا اذا أصبحت قائمة وموجودة وجوداً محدداً فى المجتمع الموضوعى يقول هيجل « يصبح مبدأ الحق قانوناً **Gesetz** عندما يوضع **gesetzt** فى وجوده الموضوعى ، أعنى عندما يجعله الفكر معيناً من أجل الوعى ؛ ومعروفاً على أنه ما هو حق ، وعندما يكتسب الحق هذا الطابع يصبح قانوناً وضعياً بصفة عامة ٠٠ »(٧٠) ٠ غير أن هذا القانون الذى هو « تموضع » للحق يختلف اختلافاً أساسياً عن العادات والعرف

---

(٦٩) ماركيوز : « العقل والثورة » ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ترجمة د٠ فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٠ ٠

(٧٠) هيجل : « فلسفة الحق » المجلد الثانى ترجمة د٠ امام عبد الفتاح امام فقرة ٢١١ ٠

والتقاليد ... الخ . فالقانون من ناحية يتأسس على طبيعة العقل ، ولا يستمد من التاريخ كما هى الحال فى العادات ، ثم أن القانون من ناحية أخرى يتسم بالكلية التى هى طبيعة نفسه ، فى حين ان العادات والتقاليد والعرف ... الخ . تتسم بالعرضية والاتفاق ، وهى ذاتية ومتحيزة وجزئية لكن هناك مسألة هامة هى أن العادات والتقاليد لا تخلو من عناصر عقلية ، ومن ثم كلية ، وهكذا نجد أنها عندما تبرز هذه العناصر بحيث تكتسب خاصية التطبيق الكلى العام فانها تتحول الى قوانين . ومن هنا كان الأصل التاريخى للقانون القديم انما يوجد فى العادات والتقاليد . وموضوع القوانين هو علاقات الأشخاص من خلال الحق ، والخطأ ، والجريمة ... الخ ، وان كانت هذه العلاقات خارجية لأنها هى التى توجد وجوداً موضوعياً فى المجتمع .

واذا كان العقل هو الذى يحدد القوانين ، فان تحليلها وتطبيقها على فئات خاصة ، وتقسيمها الى أقسام فرعية فهو من مهمة الفهم . ويمكن لهذه التقسيمات أن تستمر بغير نهاية . ونحن هنا ندخل دائرة **المتناهى التى هى دائرة الصدفة والهوى والعرضية ..(٧١) ولا شك « أن العقل نفسه يتطلب منا الاعتراف بأن العرضية ، والتناقض ،** والظاهر لها دائرة وحق خاص بها ، وهى دائرة محدودة ومحصورة ، **ومن غير المعقول السعى لحل وتصحيح التناقضات بداخلها .. »(٧٢) .**

---

(٧١) ولتر ستيس « فلسفة هيجل » المجلد الثانى « فلسفة الروح » ص ١٠٥ ترجمة د. امام عبد الفتاح امام ـ العدد الرابع من سلسلة المكتبة الهيجلية أصدرته دار التنوير فى بيروت ـ طبعة ثالثة عام ١٩٨٣ .

(٧٢) « أصول فلسفة الحق » المجلد الثانى من ترجمتنا العربية ـ أضافة للفقرة رقم ٢١٤ .

(ب) القانون وقد تعين :

يذهب هيجل الى أنه اذا كانت للقوانين قوة ملزمة تجعلها تكتسب خاصية القانون الايجابى فانه « ينتج من ذلك ، من وجهة نظر الحق الخاص بالوعى الذاتى أنه لابد أن يعرفها الناس جميعاً ٠٠ » ٠ وتلك هى النقطة الجوهرية الثانية هنا ـ وهى أن القوانين لابد أن تذاع وأن تعرف معرفة عامة للناس جميعاً : وهو يضرب لنا أمثلة مما كان يفعل الطاغية دنسيوس طاغية سراقوسة ، الذى كان يقوم بتعليق القوانين فى أماكن مرتفعة الغاية بحيث يصعب على المواطنين قراءتها ! ويرى هيجل أن مثل هذا العمل ظلم فادح ، مثله مثل دفنها فى سجلات الدولة أو مجلدات علمية لا يستطيع الانسان العادى أن يصل اليها . أو صياغتها فى لغة ميتة بحيث يصعب على الناس أيضاً معرفة القوانين المطبقة فى بلادهم ٠ وهو ، على العكس ، يمتدح « جوستنيان » الذى قدم لشعبه القانون القومى فى صورة تشريعات مرتبة ترتيباً جيداً وواضحاً(٧٣) ـ فاذا كان القانون تجسيداً لشخصيتى ولحريتى ، فانه لا يكون لى الا اذا اعترفت أنه كذلك ٠ ومن حقى أن أعرف هذا القانون وأن أعترف بأنه قانونى ٠ ومعنى ذلك أن القوانين التى تسن فى سرية ، أو القوانين التى يجهلها أولئك الذين نتوقع منهم اطاعتها هى أوامر خارجية غريبة تفرض عليهم ٠ وفرضها على الناس يمثل خرقاً لحق الذات الحرة ٠ ومن هنا فلابد للقوانين أن تذاع على أوسع نطاق ممكن ، كما أنه لابد أن تتضمنها النشرات التى يستطيع الجميع قراءتها ، فاذا ما تم ذلك استطعنا أن نقول : أن الجهل ، بعد ذلك ، بالقانون لا يعفى المواطن من المسئولية : فالتقصير عندئذ يقع على عاتقه هو !

---

(٧٣) « أصول فلسفة الحق » المجلد الثانى ـ اضافة للفقرة رقم ٢١٥ ٠

(جـ) المحكمة أو دور القضاء :

عندما يتخذ الحق صورة القانون فانه بذلك يخطو خطوته الأولى نحو الوجود المتعين ، وهو بذلك يصبح معارضاً للارادة الجزئية ، وللرأى الذاتى عن الحق بحيث يكون له وجود قائم بذاته يدعم نفسه بوصفه شيئاً كلياً . ويتم انجاز ذلك عن طريق الاعتراف به وجعله واقعاً لحالة جزئية معينة بغض النظر عن الوجدان الذاتى أو المصلحة الخاصة وتلك هى مهمة السلطة العامة أو القضاء(٧٤) ومعنى ذلك ، بعبارة أخرى ، أن الحق الذى اتخذ صورة القانون عندما تجسد فى وجود متعين عليه أن يدافع عن نفسه ضد الارا ات الجزئية وما تقوم به من فعال تعسفية ، كما أن عليه أن يهبط من العمومية الى الحالات الفردية بحيث يوجد بالفعل فى تفصيلات الحياة ، ولكى يتحقق ذلك فلابد أن يكون هناك سلطة منظمة هى المحاكم أو دور القضاء . أما حين يقوم الأفراد برد الخطأ وانزال العقاب على مرتكب الجريمة فذلك هو الانتقام الذى يندفعون اليه وفقا لأهوائهم وبدافع من مصالحهم الخاصة . لكن دور القضاء أو المحاكم فهى لا تمثل المصالح الخاصة للفرد ، وانما تمثل الحق أو القانون الكلى الذى يخضع له القاضى نفسه ، ومن هنا فان « نظرية هيجل التشريعية تنحاز ، على نحو قاطع ، الى الاتجاهات التقدمية فى المجتمع الحديث . فهو يرفض كل النظريات التى تجعل الحق متوقفاً على قرار القاضى لا على شمول القانون — وكان فى ذلك مستبقاً لاتجاهات لاحقة فى التشريع — وهو ينقد وجهة النظر التى تجعل القضاة مشرعين دائمين ، أو تجعل القرار النهائى فيما يتعلق بالحق والباطل متروكا لتقديرهم .. »(٧٥) ولا يهم بعد ذلك

---

(٧٤) المرجع نفسه فقرة رقم ٢١٩ .

(٧٥) ماركيوز « العقل والثورة » ص ٢٠٨ من ترجمة الدكتور فؤاد زكريا السالفة الذكر — وانظر أيضاً « أصول فلسفة الحق » فقرة رقم ٢١١ .

ان تتألف المحكمة من قاضى واحد أو اكثر وهو يذهب الى أنه يمكن أن تكون هناك هيئة من المحلفين تحاول أن تحدد تحديداً موضوعياً ما اذا كان المتهم مذنباً أم غير مذنب وذلك عن طريق بحث الوقائع ، فى حين أن القاضى هو الذى يطبق القانون ويصدر الحكم .

ثالثا ـ الشرطة والنقابة :

المجتمع المدنى كما سبق أن ذكرنا يتألف من أفراد يسعى كل منهم لاشباع حاجاته وغاياته الخاصة ، لكن تظل حياة كل شخص ورفاهيته فى نظام الحاجات ، كما يقول هيجل ، امكانية مرهون تحققها الفعلى **بمواهبه الخاصة ونزواته بقدر ما هو مرهون بنظام الحاجات الموضوعى** « وليس من الطبيعى فحسب أن يسعى الفرد وراء اشباع حاجاته وتحقيق رفاهيته ، بل ان ذلك حق من حقوقه » لكن المشكلة أن الفرد يسعى الى تحقيق هذه الرفاهية والوصول الى اشباع هذه الحاجات فى عالم تحكمه العرضية والاتفاق والارادات التعسفية للأفراد ، فكيف يمكن أن يضمن الفرد هذه الرفاهية أو ذلك الاشباع فى مواجهة عوامل الصدفة والاتفاق ؟ ! هنا تظهر الشرطة . ويعتقد ماركيوز أن مفهوم الشرطة عند هيجل تظهر فيه كثير من سمات النظرية التى كان الحكم المطلق يستخدمها فى تبرير التنظيم الذى يقيد به الحياة الاجتماعية والاقتصادية : فالشرطة لا تتدخل فقط فى عملية الانتاج والتوزيع ، ولا تقيد فقط حرية التجارة والربح وتراقب الأسعار والفقراء والمشردين ، بل هى أيضاً تشرف على **الحياة الخاصة للأفراد كلما كان لها تأثير فى الصالح العام(٧٦)** ــ غير أننا ينبغى أن نضع فى ذهننا أن هيجل كان يعتقد أن للشرطة مهمة عامة هى حماية رفاهية الفرد عندما تتعارض وتتصادم مع رفاهية غيره من

---

(٧٦) العقل والثورة ص ٢١١ .

الأفراد ، فحماية الرفاهية والملكية الشخصية وحماية الفرد من الأضرار يقع فى داخل نطاق مهمة الشرطة وهو ما يبرر قيامها بالاشراف والرقابة .

غير أن الشرطة ليست هى الوسيلة الوحيدة لحماية الفرد من الأضرار التى تقع عليه ، بل هناك نظام آخر يقوم بحماية الفرد ويمكن بواسطته كبح جماح المجتمع المدنى وهو نظام النقابات الذى يتصوره هيجل على مثال نظام الطوائف الحرفية القديم ، مع اضافة بعض سمات النقابات الحديثة . وهكذا يؤلف الأفراد الذين تتشابه مصالحهم ورفاهيتهم ـ رابطة تعرف باسم « النقابة » ، وعلى الرغم من أنها تنشد فى البداية مصلحتها الخاصة ، فان نشاطها مع ذلك يحقق الغايات الكلية للمجتمع المدنى ، وفيها يقل السعى الذاتى للفرد نحو اشباع حاجاته ، ومادامت اهداف النقابة أوسع ، واكثر كلية الى حد ما ، من اهداف الفرد ، فانها تؤدى الى الارتفاع من مستوى نشاطه الذاتى الخالص الى مستوى النشاط الكلى .

تلك هى بصفة عامة أهم خصائص المجتمع المدنى او البرجوازى عند هيجل ، لكنه يسوق ملاحظات لعل اقوى ملاحظة وأوسعها مدى تلك التى ساقها عن الاتجاه الهدام الذى يسير فيه هذا المجتمع ، وهو يختم كلامه بقوله : « ان المجتمع المدنى مدفوع ، بواسطة جدله الخاص ، الى تجاوز حدوده الخاصة بوصفه مجتمعاً محدد المعالم مكتفياً بذاته .. » فلابد أن يبحث عن أسواق جديدة تستوعب الانتاج الفائض المتزايد ، وأن يتبع سياسة توسع اقتصادى واستعمار منظم ، وهذا يعنى أن المجتمع البرجوازى اذا ما استمر ينمى خصائصه الى اقصى حد فلابد ان يتحول الى نظام استعمارى ... !

***

المحتويات

رقم الايداع ٥٣٠١٠ / ٨٦